مفاتيح الحاج

مقتبس من كتاب (طوفان محمد)

د. أحمد خيري العمري



مفاتيح الحاج

د.أحمد خيري العمري

مقتبس من كتاب

«طوفان محمد»

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ _ ٢٠١٤م

تلخيص: رضوى عامر
هبة عمرو

تصميم: شهد آصف

تنبيه





القرآن..لأمة قائمة

www.quran4nahda.com
quran4qyam@gmail.com

Qeeyamقيام

Qeeyam Ommah

تقديم د. وليد أحمد فتيحي

مفاتيح لأعماق عوالمنا الداخلية

حين قرأت سلسلة (كيمياء الصلاة) للدكتور أحمد خيري العمري، فوجئت بقدرة الكاتب على استخراج هذا الكم من المعاني المهجورة لأثر الصلاة في بناء الفرد والمجتمع، ونجاحه الكبير في استخلاص المعنى الإيجابي النهضوي لـ (إقامة الصلاة) عندما تُقرأ من خلال مجموع النصوص القرآنية وقراءة آثارها على الفرد والمجتمع.

وبعد أن تقبلت رسالة (كيمياء الصلاة) بأحسن قبول، مستشعراً معاني الامتنان لكاتبها المبدع، وبعد أن كانت لي رحلة بحثية خاصة مع فريضة الصيام وآثارها وحقيقة الصوم ومعانيه، وجدتني أسأل نفسي: هل الشعائر التعبدية يمكن أن تحمل كل هذا العمق والتلاحم مع كيان المؤمن والتأثير فيه واستنطاق جوارحه وروحه وعقله لإعادة بناء العالم وفقاً للدور المرسوم له كـ (خليفة في الأرض)؟

وها أنا اليوم أجد إجابة جديدة من الدكتور أحمد خيري العمري ذاته فيما يتعلق بـ (الحج).. إجابة تجعلنا نسلك نفس الطريق في التفكير في المعاني التي تبني الإنسان وتعينه على القيام برسالته.. إجابة تمدنا بـ (مفاتيح) تفتح ما استعصى علينا فهمه من نسك الحج، كما تفتح أعماق عوالمنا الداخلية.

بـ (مفاتيح الحاج) المقتبس من الكتاب الأكبر عن الحج (طوفان محمد)، يضيف الدكتور العمري إضافة نوعية جديدة إلى بنائه على طريق النهضة الذي بدأ بـ (البوصلة القرآنية) وشمل (سيرة خليفة قادم)، (استرداد عمر من السيرة إلى المسيرة)، (الفردوس المستعار والفردوس المستعاد)، (سلسلة كيمياء الصلاة)، وروائعه الروائية (ألواح ودسر) ليثري المكتبة الفكرية المعاصرة بإبداعاته المتواصلة التي نسأل الله أن تؤتي أُكلها في بناء جيل واعٍ قادر على القيام بأمانته والنهوض بأمته.

د. وليد أحمد فتيحي

لماذا نحج ؟

ولماذا نحتاج إلى مفاتيح في الحج؟

تعودنا أن لا نسأل هذه الأسئلة.

..تعودنا أن نرد على هذه الأسئلة على نحو يسكتها... كما لو أنه لا يحق لنا السؤال عن الشعائر والفروض ومعانيها..

تعودنا أن نتعامل معها على نحو يفرغها من المعاني المرتبطة بحياتنا اليومية، على نحو يحصرها بعيدا في زاوية تكفير الذنوب وتخفيف الضغط، بدلا من أن يجعلها وسيلة للبناء والقيام بما خلقنا للقيام من أجله..

هذه الأركان هي أركان الإسلام..ودورها الحقيقي هي أن تكون كذلك فعلا، أن تكون ركنا لنا، لبنائنا الشخصي القوي...

لكننا نعاملها للأسف كما لو كانت **عكازات نتوكأ عليها** ..

لقد حولناها إلى عكازات لأمراض النفس وأوجاع الروح.. ضمادات لجروحنا وكدماتنا..

ولأنها يمكن أن تكون ذلك فعلا، نسينا أنها تعالج

أيضا.. وأنها تبني.. وتنير الدرب..

في كل ركن من أركان الحج، في كل سنة من سننه، ثمة مفتاح، مفتاح لا يفتح لنا فهم هذا الركن أو تلك السنة فحسب، بل يفتح لنا أنفسنا..يفتح لنا عالما جديدا..

دوما ثمة مفاتيح جديدة في الحج..

دوما ثمة «فتح» لا ينتهي أبدا..

* * *

لماذا يحج الناس؟

السؤال بسيط جدا.. وسيكون هناك ثلاثة أجوبة:

الأول هو الغالب حتما، وهو ما يجعل الناس يؤجلون أداء فريضة الحج إلى التقدم في العمر.. السبب غالبا هو أن الحج (**يكفر الذنوب**)، وهذا يجعل الناس يريدون أداءه بعد أن أدوا (أكبر قدر ممكن من الذنوب)..

الحج باعتباره غسالة للذنوب، ومصفراً لعدادها، حقيقة لا يمكن أن ننكرها، فقد صح عنه عليه الصلاة والسلام:«**مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»).

لكنه عليه الصلاة والسلام لم يقل إن هذا هو (**المقصد**) من الحج.. كما لم ترد أي إشارة إلى أن هذا هو المقصد في القرآن الكريم.. وهذه العبارة «كيوم ولدته أمه» - وإن علقت في العقل الجمعي عن الحج أكثر من غيرها – إلا أنها **وردت في مناسبات أخرى**

وفي أحاديث صحيحة أخرى.

لكن أن تعود من الحج **كيوم ولدتك** أمك، لا يعني فقط عودتك بلا ذنوب.. **لا يعني فقط المغفرة..**

بل يعني **أن تكون قد ولدت من جديد..**

تعود بلا عُقَدْ، أن تنظر إلى العالم بنظرة جديدة، أن تكون متحفزا للتعلم..

لا مستحيل في قاموس مَن ولد للتو.. لأن قاموسه لم يكتب بعد..

«كيوم ولدته أمه»، يمكن أن تساهم في «يوم تولد الأمة، من جديد»..

* * *

الركن، بالتعريف، هو ما يستند عليه البناء ويقوم ليرتفع.

تخيل أنك تبني بيتا، وأن المهندس وضع تصميما خاصا لا يقوم إلا على خمسة أركان..

لكن المقاول يخبرك أنه سينفذ المشروع على أربعة أركان فقط، لسرعة التنفيذ والعجلة فيه، أو للاقتصاد في النفقات.. ويخبرك أن عليك أن تتذكر أن تضيف الركن، لاحقا.. بعد بضعة عقود..

هذا هو ما يحدث مع الحج.

* * *

ارتباط ركن الحج من دون كل الأركان بالاستطاعة

عبر **«من استطاع إليه سبيلا»** تجعلنا نجزم أن الفكرة، لو تأملنا فيها قليلا بمعزل عن فكرنا التقليدي، لوجدنا أنها **(تحتم) أن يكون الحج في أبكر وقت ممكن..** فالاستطاعة – على الأقل في جانب مهم من جوانبها - هي القدرة البدنية التي تكون أكثر ما تكون في فترة الشباب..

وأداء الحج، **عند أول الاستطاعة**، أمر ينسجم مع أن دور الأركان في حياتنا **هو أكبر بكثير من دور غسل الذنوب من أجل تجديدها لاحقا..**

أن تحج عندما تستطيع، يعني أنك ستعود وفي استطاعتك أن تفعل الكثير..

لذا فإن فكرة الاستطاعة.. **تتناقض جوهريا مع فكرة التسويف والتأجيل..**

*   *   *

ثاني سبب يجعل الناس يحجون هو أن الحج **ركن وفريضة وأمر من الله وكفى..**

يحدث هذا مع الصلاة ومع الحج تحديدا بوضوح.. لأنهما أكثر (شعائرية) من سواهما..

التأكيد على أن العبادات مقصودة لذاتها، يعكس نوعا من الشك في عدم إمكانية الوصول إلى أجوبة شافية..

وهذا الشك، يعكس بدوره أمرا من اثنين:

الأول – التصور أن هناك ما يأمر به الله **دون أن يكون فيه حكمة..** وحاشا لله أن يكون ذلك.

الثاني – التصور أن **حكمة الله تكون خافية كليا - وبشكل مقصود - على العقل البشري** الذي خلقه الله فينا.. **وفي هذا مساس لا بالعقل وحده. بل بخالقه** أيضا.. بحجته على خلقه.

لن يتمكن العقل بالضرورة من سبر أغوار كل الحكم والمقاصد الإلهية لشعيرة ما مرة واحدة، لكنه سيتمكن حتما من فهم الكثير منها، لا يمكن للحكمة الإلهية لأمر ما أن تبقى خافية طيلة الوقت..

نعم.. يمكن لنا أن نفهم المقاصد..

وأزعم، أن هذا سيجعلنا نتعبد أفضل.. وأزعم أيضا، أن الزعم بغير هذا، يفرغ عباداتنا من معانيها..

*   *   *

السبب الثالث الذي يجعل البعض يؤدي فريضة الحج، هو العاطفة..

البعض يمتلئ شوقاً له عز وجل.. ويجد في الحج موطناً لإطفاء هذه الأشواق وتلبية حاجاتها..

ويكون ذلك غالبا عند من تيسر لهم الحج مرات كثيرة..

ومثل السببين السابقين، لا يمكن الاعتراض تماما على هذا الدافع، **لكن يمكن حتما الجدل بكون هذا ليس هو (المقصد) للحج.**

لكن، لماذا نحج إذن؟

ما هو الحج؟

قد يبدو الحج أنه مثل سفرة عادية ولكن إلى مكان مقدس. مكان غير عادي.. يبدو في الظاهر فقط..

أما في الداخل. في الجوهر.. فالرحلة الحقيقية ليست هي تلك التي نقوم بها عبر الطائرة.

رحلة الحج هي رحلة في داخل نفسك.. رحلة تبحث فيها عن ذاتك..

نعم.. أنت تنتقل في المكان.. في الجغرافية.. عبر خطوط الطول والعرض..

لكن هذا سهل.. الرحلة الأصعب هي تلك الرحلة الأخرى..

الرحلة في **تلك القارة غير المكتشفة التي تقطنها دون أن تعرف عنها شيئا..**

الحج هو **رحيل إلى العالم الآخر في داخلك..** إلى ذلك المكان الذي لم تفكر يوما في زيارته.. المكان الوحيد الذي لا يحتاج إلى تأشيرة ولا إلى جواز سفر، ورغم ذلك فإن الناس قد تغفل عن زيارة هذا المكان..

الحج هو **رحلة اكتشافك لذاتك ونفسك.. لمعنى وجودك..**

رحلة في الداخل تتناسق مع رحيلك إلى مكة خطوة خطوة.. يحدث تزامن بين الرحلتين على نحو استثنائي...

* * *

الحج هو مثل تلك الكشوفات الجغرافية التي قادت إلى اكتشاف (العالم الجديد)، لكنه يحدث في ذلك العالم الآخر الذي نادرا ما نفكر بزيارته.. العالم الذي في داخلك، وكشوفات الحج الجغرافية، **تستهدف البحث عن الموارد غير المستثمرة فيك**.. الحج يكتشف في داخلك **قارة جديدة، قارة اكتشافها يغير تاريخك الشخصي..**

كشوفات جغرافية، نعم..

وكما كانت تلك الكشوفات الجغرافية جزءاً من نهضة أوروبا، كذلك هذه الكشوفات. هي جزء من نهوضك أنت.. جزء من قيامك.. وعندما يلتقي نهوضك وقيامك مع نهوض وقيام الآخرين من حولك، فإن ذلك سيساهم في إنتاج نهوض وقيام يغير وجه البشرية ومسارها..

المقصد، ركناً من أركان الإسلام

البحث المعجمي عن أصل كلمة حج، سيقودنا إلى المعنى الأول للفعل حجج، وهو ما اشتق منه الحج، هو القصد..! هل هو مكان تقصده؟

نعم.. يبدو ذلك مناسبا.. فعندما تحج، فأنت تقصد مكانا بعينه.. تقصد مكة والبيت الحرام والمشاعر المقدسة..

للوهلة الأولى سيبدو هذا مناسبا جدا.. لكن، للوهلة الثانية، ستكتشف إمكانية أن يكون هناك المزيد..

ربما القصد هنا لا يرتبط بالمكان فحسب.. بل يرتبط بأهمية أن يكون لك مقصد في حياتك..

أن يكـون لـك هـدف فـي هـذه الحيـاة.. هـدف واضـح محـدد.

الحج يعني القصد؟

نعم.. يبدو ذلك أكثر اتساقا الآن..

أن يكون ركنـك الخامـس الركيـن، ركنـاً يبنـي فـي داخلـك (المقصد)..

أن لا تضيـع حياتـك سـدى وعبثـا.. بـل أن تشـق طريقـك بنفسـك.. نحـو المقصـد..

*   *   *

يذكرني ذلك بـ «من استطاع إليه سبيلا»..

فـلا أجـد فيهـا هنـا الرخصـة المعهـودة، بقـدر مـا أجـد فيهـا **تحفيـزاً للاسـتطاعة..**

عندما تؤمن بهدف ومقصد..

وتعلم أن الطريق إليه وعر وصعب وموحش..

قـد تكـون (اسـتطاعتك) - حقـا - أقـل مـن القـدرة علـى تحمـل صعـاب هـذا السـبيل..

لكـن إيمانـك بالمقصـد.. إيمانـك بأنـك يجـب أن تقصـده.. يجعلـك تـروض اسـتطاعتك.. تروضهـا لتزيدهـا.. تزيـد مـن قدرتـك.. تعمـل علـى نفسـك لتقويهـا.. لتزيـد مـن اسـتطاعتك.. فيصيـر مـا لـم يكـن مسـتطاعا، فـي متنـاول يـدك..

مـع الاسـتطاعة، الأمـر لا يتعلـق حقـا بقـدرات جسـدية أو بدنيـة محـددة مسـبقا ولا سـبيل لتغييرهـا..

مـع الاسـتطاعة، وعندمـا توضـع في السـياق الـذي وضعه القـرآن، أن يكـون علـى النـاس حـج البيـت «لمـن اسـتطاع إليـه سـبيلا».. يتحـول الأمـر إلـى مجاهـدة مـع نفسـك.. إلـى مغالبتهـا.. إلـى صـراع مـع (اسـتطاعتك) لتكـون علـى **قـدر مـا كلفـك الله بـه..**

هذا هو التحدي الحقيقي..

البرهان والحجة

المعنـى الثانـي الـذي يتسـرب مـن لسـان العـرب ومعانيـه فـي لفظ (حجـج)، يقـدم لنـا مفتاحـا آخـر مـن مفاتيـح الحـج.. ودليـلا إرشـاديا فـي تلـك الرحلـة..

«الحُجَّـة الدليـلِ البُرْهـان وقيـل الحُجَّـة مـا دُوفِـعَ بـه الخصـم وقـال الأَزهـري الحُجَّـة الوجـه الـذي يكـون بـه الظَّفَـرُ عنـد الخصومـة، والتَّحـاجُّ التَّخاصُـم»

البرهان؟ الحجة؟ هل في ركن الحج معنى كهذا؟

نعـم.. فـي عمـق ذلـك الركـن، فـي أساسـه، هنـاك تلـك الحجـة التـي تقيمهـا علـى نفسـك..

الحجـة هنـا، ليسـت علـى خصمـك المعلـن.. الـذي تخوض حربـا معلنـة شرسـة ضده..

بـل علـى خصمـك الآخـر.. الـذي لا تعلـن قـط حربـك ضـده، ربمـا لأنـك تتجاهـل حقيقـة أنـه عـدوك.. أو تتعامـل معـه كمـا لـو كان حليفـا أحيانـا..

خصمك الآخر.. الذي هو أنت..

تحتاج إلى أن تقيم عليه الحجة..

ذلك الشخص الآخر الذي تتكر وجوده دوما.. ذلك الشخص المليء بالشكوك الذي نادرا ما تظهره أمام أي شخص..

ذلك الشخص المليء بالرغبة في الهروب من كل مسؤولية.. بالكسل.. بالتنصل من كل شيء..

ذلك الشخص الذي يظهر في السر.. بعيدا عن أعين الجميع..

هو من يحتاج إلى ذلك البرهان..

هو من يجب أن يغيره الحج..

هو من يجب أن تولد من جديد وقد تخلصت منه..

مفتاح النية

كل عمل ننجزه في حياتنا، يجب أن يكون مدفوعا بنية ما، النية هي القصد والإرادة.. وهي أصل في كل عبادة من العبادات في الإسلام .. وهي أصل في الحج كذلك.

هل يمكن لمن يحج أن لا ينوي؟ أليس ذلك تحصيلَ حاصلٍ؟ ألم يكن ذلك في (نيته) وهو يتم الإجراءات؟

بالتأكيد هو يريد الحج ..

النية الكامنة وراء أداء الحج- عندما يكون حجا

مبرورا- تشبه النواة في الذرة..

إنها في الأصل موجبة، **دافع إيجابي للعمل والتغيير والبناء..** ولكن هذا الدافع محاط بدوافع سلبية تحوم حوله وتريد أن تثبطه أو تحرفه عن مساره أو تحيده عن العمل الإيجابي على الأقل..

كلما كانت هذه النية إيجابية أكثر، **كانت قادرة على تحرير طاقة هائلة في داخلك لتجعلك تعمل وتنجز..**

ومثل كل مصادر الطاقة، هذه الطاقة معرضة لأربعة احتمالات:

أن تستخدم فيما كانت من أجله..

أن تستخدم في **هدف جزئي،** قد لا يكون خاطئا بالضرورة، لكنه هدف مختزل جدا ولا يعبر إلا عن نسبة بسيطة جدا من (الهدف الأكبر)..

أن لا تستخدم على الإطلاق.. أن لا تتحرر أي طاقة من التفاعل.. أن يمر الأمر كما لو أنه لم يحدث أصلا.. لا تفكر في مقاصده ودوافعه وأسبابه..

أو أن تستخدم كما يجب..

لكن ما هي النية في الحج أصلا؟

إنسان جديد.. ليس أقل من هذا!

وهذا الإنسان الجديد، لا يمكن أن يأتي، ما لم تحتو تلك النية، **على أثر لإبراهيم** عليه الصلاة والسلام..أن تتمثل رحلة إبراهيم وخطواته في ذلك الدرب..أن تتيقن أنك على خطاه..وأنك في حجك هذا إنما تلبي نداءه

البعيد العميق القريب.

هل يعقل أن تنوي الحج وتنسى أنك إنما تلبي نداءه العتيق العريق؟ وأنه أول من أذن في الناس بالحج؟ وأن البيت الذي تقصده قد بناه إبراهيم؟

إبراهيم المسلم الأول. الذي شق الدرب إلى الإيمان بالعقل. إبراهيم الذي حطم الأوثان. إبراهيم الذي وجد القلب المطمئن. الذي كان مستعدا للتضحية بكل شيء. الذي بنى.

الجوهر الحقيقي للنية هو الوعي بما يجب فعله.. بما يريده الله منك هنا.. وأن تؤمن بقدرتك على فعله..

* * *

مفتاح الميقات

الميقات فقهيا **هو زمن العبادة ومكانها.**

المكان هو المواضع الخمسة التي حددها الرسول عليه الصلاة والسلام.. والزمان هو الأشهر الحرم..

هذا (الزمان – المكان) الذي تدخله لتخوض هذه التجربة الجديدة هو **علاقة جديدة بين الأشياء..** أنت تدخل توا في واد خارج الأبعاد التقليدية.. تستحضر التاريخ، في لحظة فارقة منه، في مكان محدد على مشارف مكة، فيما يجب أن يكون لحظة فارقة من حياتك.. فيما يجب أن يؤثر على (المستقبل).. المستقبل **الذي تريد أن يتشكل على نحو أفضل بسبب مرورك في هذه المحطة..**

* * *

خمسة أماكن حددها عليه الصلاة والسلام لتكون (الميقات) اعتمادا على الجهة التي يأتي منها الحاج..

ذو الحليفة: وهو ميقات أهل المدينة ومن جاء منها. وبينها وبين مكة تسع مراحل وهو أبعد المواقيت عن مكة.

الجحفة: وهي ميقات أهل الشام ومصر ومن مر عليهما من غير أهلهما. وقد أبدلت اليوم برابغ.

يلملم: وهو ميقات أهل اليمن وتهامة والهند. ويلملم جبل صغير على بعد مرحلتين من مكة.

قرن المنازل: وهو ميقات أهل نجد والحجاز وهو جبل مشرف على عرفات على بعد مرحلتين منه.

ذات عرق: وهي ميقات أهل العراق وسائر أهل المشرق وهي قرية على بعد مرحلتين من مكة وسميت بذلك لوجود جبل فيها يسمى عرقا يشرف على وادي العقيق.

تدخل المكان من هنا، في توقيت محدد، تغادر إلى هناك، تقوم بعمل شيء محدد سلفا، كل شيء سيكون حسب خطة واضحة محددة.. تحركاتك.. وأوقاتها..

ربما كانت فكرة الخطة، بمعزل عن تفصيل كون ذلك خطة لأي شيء، أن تؤمن **بضرورة التخطيط.. أن تؤمن بالخطة.. جزء من المنافع التي سيرجع بها الحاج إلى موطنه!**

* * *

يسمون من جاء من خارج الحرم (الآفاقي).. وأغلب

مسلمي اليوم هم آفاقيون أي يأتون من آفاق مختلفة وبعيدة..

لكن ما هو مهم هنا.. **هو أن يجعلهم الحج يفتحون الآفاق.. أن يرتقوا في الآفاق، بعد رحلتهم هذه..**

أن يجعلهم الحج، قادرين على ارتقائها..

مفاتيح الإحرام

عند الميقات تبدأ بالإحرام. والنية جزء من هذا الإحرام.. إنه اللحظة التي تبدأ فيها النية بالتفعيل..

لماذا الإحرام؟

الإحرام لأنك هنا، ستصير **جزءا من البيت الحرام**.. ستصير جزءا من هذا البيت العظيم الذي وضع للناس...تكاد تصير حجرا من أحجاره..كما لو أن حياتك وأعمالك كلها ستوجز لتكون إضافة حجر على بناء يجب أن يكون ارتفاعه مستمرا..

ستتخلى عن ذاتك القديمة، وتصير جزءا من المكان الجديد وقد دخلت في طور الإحرام.

أصل تسمية البيت الحرام، والمسجد الحرام، يرتبط بكونها (محرمة) على المشركين..

واليوم، ها أنت تصير جزءا من هذا.. محرم على الشرك..

اليوم الشرك لن يدخل نفسك أو جسدك أو عقلك..

لكنك لم تشرك ولم تسجد لصنم قط..ستقول لنفسك أولا.. ولكن **وأنت (تحرم) ستكتشف أن الأوثان التي عليك أن تتخلص منها خفية في داخلك.. أخطرها هي أنت، وأخبثها هي تلك التي تفلسف لك أخطاءك وأهواءك، وأكثرها رواجا هي تلك التي تجعلك (عبدا) - لا يدري بعبوديته - لذلك الملأ المسيطر المتحكم برأس المال..**

وكما البيت محرم فيه الدم، فإن الصراع في داخلك، بينك وبين شياطينك، بينك وبين نفسك قد انتهى .. و**ستجرب حقا وعمليا أن تكون كلك هذه المرة، لله!**

* * *

ومن واجبات الإحرام، ارتداء ملابس الإحرام البيضاء - للرجال فقط. أما النساء فيحرمن بملابسهن العادية ولكن مع التأكيد على كشف الوجه والكفين_.

ملابس الإحرام ستذكرك بالكفن .. إنها فرصتك وأنت **لا تزال تملك خيارك بأن ترتدي كفنك لاحقا بعد أن تكون قد أديت ما عليك إلى أقصى حد ممكن.. هي فرصتك لكي يكون ما سيملأ الكفن أفضل!**

ملابس الإحرام، التي هي (الزي الموحد) الذي يلتزم فيه الحجيج جميعا تجعلنا نشعر كم نحن **متشابهون جدا..** مهما حاولنا أن نتميز، أو نتمايز، **ملابس الإحرام ستكون لنا بالمرصاد..**

لا علامة تجارية على ملابس الإحرام..

نعيش في مجتمعات استهلاكية تقوم بتكريس فكرة في داخلنا - أن الإنسان يقَيم بما يملكه من سلع..

لقد تم تحويل الإنسان إلى سلعة، سلعة تقيم بقدرتها الشرائية للمزيد من السلع، وتم إيهامنا بأنه لابد من أن تعبر العلامات التجارية عن نجاحك وعنك. **لكن ملابس الإحرام لا تخضع لهذا ..**

يحدث للأسف ما يؤثر على فكرة المساواة بين الناس أجمعين.

يمكن لك أن تحج (خمس نجوم)، وأن تسكن في برج مرفه، أن تكون وجبة طعامك تكفي لسد جوع عشرة جياع في هذا العالم.. لكن مهما حاولت.. **سيصل الأمر إلى ملابس الإحرام ولن تستطيع أن تميز نفسك بشيء..**

* * *

ملابس الإحرام، تحتوي أيضا على ما هو أكثر من ذلك .. إنها ليست مجرد زي موحد للحجيج يزيل عنهم فوارقهم الطبقية والعرقية. ولا هو مجرد تذكير بالكفن وبالآخرة..

ملابس الإحرام تتكون من: إزار، رداء، ونعلين. -للرجال فقط، أما النساء فيحرمن في اللباس الشرعي مع عدم الانتقاب-.

الإزار يلف به الخصر، والرداء يلف الجذع. ويشترط في كل منهما أن لا يكون (مخيطا)..

ومعنى أن لا يكون مخيطا أن لا يكون قد خيط على

نحو يفصل الجسم، كما مع القميص والسروال والجبة..

ملابس الإحرام هنا هي **رمز تلك الشريعة التي تلفنا..**

الشريعة التي تركنا عليها عليه الصلاة والسلام، بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك..

هذه الشريعة تحيط بنا، تلفنا، إنها كل متكامل.. نسيج لوحدها.. وهي لا تقبل أن يكون فيها من سواها، لا يمكن لك أن (تصلها) بشيء من شريعة أخرى.. لا يمكنك أن (ترقعها) أو (تجملها) من منظومة ثقافية أو حضارية أخرى..

كذلك ملابس الإحرام.. نسيج لوحده.. دون أن يخيط .. لا يمكنك أن تصله بنسيج آخر.. أو تركب عليه قطعة أخرى..

أيضاً مع الإزار والرداء، تكون حريصا على أن يبقيا عليك.. تتمسك بهما.. تكون حريصا على ذلك كل لحظة..

كذلك الأمر مع الشريعة التي تركنا عليها عليه الصلاة والسلام.. لا ينبغي أن نطمئن قط إلى أنها قد (أحاطت بنا)، بل علينا أن نتأكد من ذلك كل حين.. أن (نأخذ الكتاب بقوة).. **لا أن نتركه مرتخيا سائبا ونحن مطمئنون إلى عدم سقوطه لأنه قد فصل وخيط ليكون كذلك..**

والبياض..

هل هو الصفحة الجديدة؟

هل هي راية الاستسلام ترفعها لله؟ هل هي الشريعة؟

هل هو الإشارة إلى استمرارية التطهير؟

*   *   *

قبل أن تحرم، يستحب لك أن تغتسل، أن تضع الطيب، أن تقص أظافرك وأن تزيل الشعر من جسدك..

لكن في لحظة دخولك الإحرام، سيصبح كل ذلك – عدا الاغتسال- من المحظورات.

لا يريد منك الله أن تكون قذرا حتما.. يمكنك أن تغتسل، لكن وضع الطيب محظور.. قد تشعر برائحة كريهة (ربما طبيعية أيضا) تنبعث منك.. لن يكون الحل بأن تضع العطر لتغطي على مصدر الرائحة الكريهة.. الحل أن تزيل مصدر الرائحة.. الحل بأن تواجه المشكلة باقتحامها.. إحرامك يحرم عليك الأقنعة.. أنت كما أنت.. **تغتسل نعم.. لكن بلا عطر ولا طيب.. أنت كما أنت.. والآخرون أيضا كما هم..**

عدم تقليمك لأظفارك.. أو إزالتك للشعر في جسمك أثناء الإحرام واعتبار ذلك من المحظورات، هو إعلان لك بأن عليك **أن تغير أولوياتك**.. الآن عليك أن توجه اهتمامك وحواسك لبعد آخر... ستترك (طبيعتك) تنمو، دون أن تعترض عليها..

ستكتشف كم هو مهم تحطيم الأوثان في داخلك..

ستفهم كيف أن **جسدك هذا وثن آخر تسكن فيه..** وأن مواجهتك مع (تقليم الأظفار) هي مجرد رمز صغير لمواجهة أكبر مع كل ما يجب تقليمه في علاقتك مع هذا الجسد..

لن تصير راهبا ينفي وجود هذا الجسد، فهذا مجرد وجه آخر من العبودية له..

لكنك ستنتصر على جسدك.. ستتعلم أن حربك معه ليست معه تحديدا.. بل مع أن يصير هو المسير لك ولرغباتك.. تريد أن تسيطر عليه.. أن تقوده وتسوسه.. لا أن يقودك.. أنت لست جسدك. أنت تسكنه فقط.. مجرد أداة.. ولن تسمح للأداة أن تسيطر عليك..

*   *   *

وماذا عن إحرام المرأة؟

المرأة تحمل الشريعة هوية لها طيلة أيام السنة، لقد تشرفت بالتكليف بذلك كما تشرفت بدورها الكبير في الحمل والإنجاب. وكما تشرفت أكثر بأن تعبر عن مكانتها إحدى شعائر الحج تحديدا كما سنرى لاحقا..

المرأة ترتدي طيلة السنة، ما يميزها، ما يعبر عن هويتها **وهوية الأمة بأسرها..** قدر آخر شرفها وكلفها..

لذا.. لا ملابس مميزة لمن ملابسها مميزة طيلة أيام السنة**!**

مفاتيح لاءات الحج

«فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ»

ثلاث لاءات، هي جزء من تدريبك على ترويض نفسك وكبح جماحها، في درب إخراج أفضل ما فيها،

وتغييرها نحو الأفضل..

قد يبدو لك أن كلاً من هذه النواهي تختص بجانب مختلف عن الآخر.. لكن الحقيقة هي أن هناك رابطا يجمع هذه اللاءات مع بعضها.. ويجمع ما تمنعه وتنهى عنه..

* * *

الرفث هو كناية عن الجماع.. **هو هذه المنطقة من العلاقة بين الرجل والمرأة، تحديدا، المنطقة الجنسية من العلاقة بينهما..**

العلاقة الجنسية مرفوضة ومحرمة قطعا بين الزوجين في الإحرام.

لكن ليس هذا فقط. **كل ما يؤدي إليها، أو يحوم حولها، ولو بمجرد الحديث..**

(لا رفث)، لا تلغي علاقتك بالجنس الآخر، بل تجعلك تكتشف أبعاداً جديدة لهذه العلاقة لا تقل أهمية عن عمق العلاقة المعتادة بينكما.. **بُعد المودة والرفقة والصداقة.**

بُعد الحاجة الإنسانية المجردة تماما عن أي شهوة جنسية.

البُعد الذي يجعل آدم يحتاج إلى زوجه ليكتمل..

البُعد الذي يجعل إبراهيم يبقي على زوجه رغم الشيخوخة والعقم..

* * *

الفسوق هو العصيان والترك لأَمر الله عز وجل

والخروج عن طريق الحق..

والفسوق، بما أنه كذلك، فهو محرم دوما..

لكن في الحج، هناك جانب آخر للفسوق، يذكرنا بالفاسق الأول.. إبليس ..

الفسوق الأول كان رفضا للخضوع لأمر الله. **كان خروجا عن طاعته، وعن جمع الملائكة الطائعين..**

في الحج هناك هذا المعنى الأعمق للفسوق .. أن تخرج عن هذا الجمع.

أي فعل عامد تفعله، تخرج به عن طاعة الله.. ليس فقط لحرمة المكان والزمان، لأنك دخلت في طور الطاعة المطلقة الذي ستكتشف من خلاله قدراتك وقواك الخفية.. خروجك عن الطاعة هنا، أو فسوقك، يعرض كل هذا للتخريب..

والأهم أن الفسوق سيوقف عملية ذوبانك في ال (نحن). ذوبانك كفرد، ذوبان كل ما تعتقد أنه يميزك ويجعلك أفضل من الآخرين.

ملابس الإحرام توحد هيئتك لكي تسهل عملية الذوبان هذه..

لكن الذوبان الحقيقي يبدأ لحظة التزامك الطاعة التي يلتزم بها الجمع حولك..

* * *

لا جدال..

لا شك أن هذه هي الآية الأكثر استخداما من قبل

متعهدي حملات الحج..

يستخدمونها في غير موضعها غالبا لإسكات كل من يطالب بتنفيذ ما اتفق عليه مسبقا..

لكن الآية لم تنزل لصالح هؤلاء حتما..

بل أنزلت كي تقضي على ما **يمكن أن يقضي في داخلك على اللائين السابقين..**

في داخل كل إنسان، قابلية للجدال.. يمكن أن توظف فيما هو خير.. ويمكن أن توظف فيما هو شر.

لكن، في الحج.. لا جدال!

لا سلبا ولا إيجابا.. لا استخدام إيجابي للجدال في الحج..

لأن الجدال، هو إيجابي، **عندما يوجه نحو دعوة (الآخر).**

في الحج ليس من آخر هناك.. إنما هي ذات واحدة، هي الـ (نحن).. مجرد وجود الجدال في هذا يعني أن الـ (نحن) لم تتحقق..

مجرد وجود (الحاجة إلى الجدال) تعني أن (لا فسوق) لم تتحقق..

لكن لا.. اترك من خرق (لا فسوق) يفعل ذلك لوحده.. لا جدال..

* * *

لاءات الحج الثلاث..

لا نافية للرفث.. تكبل الشهوة فيك لكي تتمكن من الإقلاع في بعد آخر، تكتشف أجنحتك التي لم تعرف بوجودها لكي تتمكن من استخدامها والتحليق بها لاحقا أيضا..

لا نافية للفسوق.. تكبل تلك الـ (أنا) المتمردة الراغبة في ترك الطاعة.. تقودها إلى الـ (أنا) التي تولد من خلال الذوبان والالتحام مع الـ (نحن)..

لا نافية للجدال.. لأن الجدال يمكن له أن يعطل اللاءين السابقين.. لأن الـ (أنا) التي تبرزها آلة الجدال، تكون خطرة على عملية الذوبان ككل..

لاءات الحج الثلاثة..

في الحج، هي جزء من متطلبات أهم (لا) في حياتك..
لا إله إلا الله..

مفاتيح التلبية

وقف إبراهيم ذات يوم، ليؤذن في الناس بالحج.. لم يكن هناك أحد منهم ليسمعه مباشرة..

وشيئا فشيئا.. جاءت الردود.. جاءت الجموع تلبي نداء إبراهيم..

على الدرب إلى الحج.. يرفعون أصواتهم ليلبوا نداء إبراهيم..

في كل خطوة من خطوات الدرب إلى مكة كأن ثمة نبياً مر هناك ملبيا.. رافعا صوته..

يلبي نداء إبراهيم .. لبيك اللهم لبيك..

وفي كل خطوة هناك الملايين يقتفون آثارهم.. ويلبون!

* * *

لفظ (التلبية) يعني الإجابة، وأصلها من الفعل (لبب) لُبُّ كلِّ شيءٍ ولُبابُه خالِصُه وخِيارُه ولُبُّ الرَّجُل ما جُعِل في قَلْبه من العَقْل.

التلبية إذن هي هذا الصوت الخارج من الأعماق .. يتصل بأعماق لبك، وبكل ما هو أنت حقا بعيدا عن القشرة والأقنعة وكل ما لا يلزم حقا..

أنت تلبي نداء إبراهيم من **لبك، لبك الذي هو حقيقتك..** هل تفعل ذلك حقا؟ أم أنك تلبي فقط لأن من يعلمك الشعائر قال لك أن تفعل ذلك ولم يخبرك بشيء مما في أعماق التلبية؟ لبيت فقط لأن من معك يلبون؟

أخشى أن عدم فهمنا لمعنى التلبية، قد يؤثر على تلبيتنا، فتكون مجرد كلاما بصوت عال.. كلام من اللسان والحبال الصوتية والحنجرة.. لا من أعمق الأعماق.

هناك في اللب، يوجد عمقك الذي قد يقضي البعض أعمارهم كلها دون أن يمروا به..

في اللب، خلاصتك وخير ما فيك، يوجد أعمق فج يمكن لك أن تخرج منه، لتلبي نداء إبراهيم..

* * *

واللب أيضاً هو ما في قلب الرجل من عقله! .. إنه **ذلك المزيج بين القلب والعقل..**

ما يميز شعائر الإسلام تحديداً عن الشعائر في بقية الأديان هو جزء مما يميز الإسلام نفسه.. أنه **لا يعد الدين موضعا لمخاطبة العاطفة فحسب، بل لمخاطبة الإنسان بكل ما فيه، من عاطفة وقلب واحتياجات..**

لا فصل حقيقة بين كل هذا في واقع الإنسان وحياته اليومية..

وهذه التلبية الصادرة من عمقك، يقول لك لسان العرب إنها نابعة من (ما في العقل من قلبك)!!

التلبية.. من العمق.. حيث يمتزج عقلك بقلبك..

* * *

ولَبَّ بالمكان لَبًّا، وأَلَبَّ أَقام به ولزمَه وأَلَبَّ على الأَمر لَزِمَه فلم يفارقْه وقولُهم لَبَّيكَ ولَبَّيهِ مِنه أَي لُزوماً لطاعَتِك.

التلبية إذن هي الإقامة بالمكان!..

أنت مسافر إلى حيث يجب أن يكون مقر إقامتك، لا الجغرافية بالمعنى الضيق، بل بالمعنى الأعمق، أنت تقول في جوابك إن طاعته عز وجل فيما يأمرك به، هو سكنك الحقيقي، هو استقرارك حقا.

لبيك اللهم لبيك، مقيم أنا في مقر إقامتي الحقيقي، حيث الدرب الموصل إليك..

الدرب الذي سار عليه موسى.. ويونس.. ومحمد عليه الصلاة والسلام..

* * *

مفردات التلبية تمثل لب التوحيد، مثل شهادة (لا إله إلا الله)..

الفرق هو أن لا إله إلا الله، تتضمن خطاباً موجهاً للجميع.. لك، لمن يؤمن بما تؤمن به.. ولمن يكفر به لأنه يؤمن بآلهة أخرى.. أو لا يؤمن بشيء، أو يظن أنه لا يؤمن بشيء وهو يؤمن بآلهة لم تعد تقول عن نفسها أنها آلهة..

لكن في التلبية أنت تخاطبه هو، عز وجل. لفظ (اللهم) لا يأتي إلا عندما يكون السياق سياق دعاء موجه إليه عز وجل، ولفظ الجلالة بصيغته هذه يتضمن ياء النداء، وأنت، بهذه التلبية، تخاطبه هو لتقول له ما هو محفور في فطرتك **«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة، لك والملك، لا شريك لك.. لبيك اللهم لبيك»**

لا شريك لك.. لا تشير التلبية إلى (إله آخر) لتنفي وجوده.. بل إلى نفي (الشريك).. الشريك الوهمي الذي ينصبه البعض - دون أن يعلنوا ذلك صراحة - ليكون شريكا لك، سبحانك!..

وكيف يكون لك شريك، والملك لك، والنعمة لك؟

ليس هناك سواك. وأنت وحدك بلا شريك.

العبودية لك. والتعبد لك. طريقة رؤية العالم منك.

والحكم على الأشياء منك. قانون حياتي منك.. نعم قد أزل عن ذلك أحيانا، لكني (أود) دوما أن أعود إلى مقر إقامتي الأكثر أمانا..

كل شريك لك، ولو بأقل نسبة رقمية ممكنة، سيجعلني أسكن على حافة الهاوية.. ولو في قصر منيف!

فكيف لا يكون الحمد، لك وحدك، وأنت وحدك تستحقه ؟

لبيك اللهم لبيك!

* * *

وفي الحديث الصحيح عن جابر، أن الرسول عليه الصلاة والسلام، **إذا استوت به ناقته على البيداء أهل بالتوحيد (لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)».**

أهّل بالتوحيد.. هكذا وصف جابر تلبيته عليه الصلاة والسلام..

وهلل، تعني رفع الصوت بالتلبية..

ولكنها تعني أيضا ما أراه مرتبطا جدا بالتلبية..

هَلَّ السحابُ بالمطر وهَلَّ المطر هَلاًّ وانْهَلَّ بالمطر انْهِلالاً واسْتَهَلَّ وهو شدَّة انصبابه.. ويقال هو صوت وقَعه.

نعم.. ترتبط التلبية بذلك فعلا.. ترفع صوتك بكلمات التلبية.. فينهمر المطر على روحك بعد طول انحباس.. وتعانق أعماق روحك ذلك المطر فترتوي وتتأهب

لنمو بذور ألقاها إبراهيم في واد غير ذي زرع.. ولكنها ستبرعم وتزدهر في وديانك أنت..

مع كل لفظ من ألفاظ التلبية، ينهمر المطر على أراضيك المقفرة التي غدت صحراء من طول الجفاف..

وليس هذا كل شيء!

فمن معاني لفظ (هلّ) **استهلَّ الصبيُّ بالبُكاء رفع صوتَه وصاح عند الوِلادة!**

يهل الطفل الوليد، **يصرخ معلنا تمسكه بحبل الحياة.. لقد ترك الحبل السري، لكنه يتمسك بحبل الله.. حبل الله الممدود بنعمة الحياة..**

صرخة الطفل، فاتحة حياته، اسمها في العربية (أهل)..

وكذلك التلبية، كما وصفها جابر، عندما تكلم عن حجه عليه الصلاة والسلام..

إنها إعلان الحياة أيضا..

صرخة الطفل الأولى تكون صرخة فطرية لا إرادية.. صرخة تشبث بالحياة..

لكن تلبيتك هنا هي صرخة تشبث واعية بالحياة.. الحياة التي تريد أن تعيد تشكيلها كما يجب أن تكون..

التلبية، لبيك اللهم لبيك، هي صرخنك التي تريد الحياة.. التي تعلن فيها أنك تريد الحياة.. أنك سئمت من ذلك النوع المتدني منها الذي أوهموك أنها كل الحياة..

قلبك الحقيقي، لبك، يعود إلى نبضه، يدق مجددا - كما بمعجزة -...

وأنت ترفع صوتك، تهل بالتوحيد..

لبيك اللهم لبيك..

* * *

مفتاح الطواف

الدوران صفة ثابتة من صفات هذا الكون. الكون كله، من المجرات، إلى الذرات، مرورا بكل ما هو (جزيئة) في هذا الكون، يدور..

والدوران، بالتعريف، **يجب أن يكون حول مركز، حول نقطة ما هي المركز، أو حول محور يقوم مقام المركز..**

ولكن، عندما تكون في داخل هذا الدوران، عندما تكون جزءا منه، فإنك تجهل أنك تدور..

عندما يكون (الدوران) هو الحركة الاعتيادية التي تلف الكون كله، فإن المراقب من داخل هذا الكون، قد يتوهم أن الكون كله ساكن، جامد، وهو في الحقيقة دائم الدوران..

الطواف، يخرجك من الصندوق.. يجعلك ترى حقيقة ثابتة من حقائق هذا الوجود.. **بل يجعلك (تتمثل) هذه الحقيقة وتكونها..** لكن هذا الدوران، هذه المرة، لن يكون مجرد دورانا فيزيائيا.. بل سيكون أعمق بكثير..

* * *

المجـرات والـذرات لا يمكـن لهــا إلا أن تـدور، ولا يمكن لهـا أن تختـار مدارهـا، أو تعكسـه، أو تختـار مركـزا مختلفـا لدورانهــا..

وأنـت أيضــا، تـدور.. بطريقـة مـا، ليـس ضمنـا، ليـس علـى النحـو الفيزيائـي، بـل بمعنـى أعمـق وأكثـر شـمولا..

كل شيء يسير حسب قوانين لا يمكن أن تتغير..

أنــت وحـدك مختلــف.. أنــت وحـدك تختــار مـدارك والمركـز الـذي تـدور حولـه.. أنـت وحـدك تختـار دورانك..

أنــت وحـدك فــي هـذه الخليقــة، تملــك الخيــار، وكل مــا عـداك.. مسـير!

هنــاك حتمــا مــن سـيعترض.. **هنـــاك بشــر لا يــدورون حــول مركــز مــا..**

فــي الحقيقــة هــذا نــادر جــدا.. كل منــا يختــار مـدارا أو فلـكا ليـدور فيـه، قـد لا يكـون هـذا خيـارا واعيـا دومـا، لكـن الأمـر فـي النهايـة واضـح: ثمـة فلـك مـا، يـدور حولـه هـذا الإنســان..

قـد يكـون الـدوران حـول نمـط حيـاة سـائد فـي مجتمـع مـا، لا يـدرك مـن يـدور حولـه أنـه يـدور حـول شـيء أصـلا.. **فقـط يخـوض مــع الخائضيــن..** ولكـن خـوض الخائضيـن هـذا يكـون عبـر الـدوران حـول مركـز مـا..

نمـط الحيـاة المتدنـي، أو مـا يعـرف بالانغمـاس فـي الحيـاة الدنيـا، هـو مركـز يـدور حولـه كثيـرون دون أن يعـوا ذلـك، نمـط الحيـاة الغربيـة نمـط سـائد أيضـا، يـدور حولـه منتمـون افتراضيـون لحضـارات أخرى..

يمكــن أن يكــون الفلــك أي خيــار أيديولوجــي عقائــدي تختــاره .. وقـد يكـون خيـارا يؤكـد أنـه ليس أيديولوجيـة بـل وينتقـد الأيديولوجيـات، فقـط ليمـرر أن (أيديولوجيتــه) هــي الخيــار الطبيعــي الأقــرب لطبيعــة البشــر وحاجاتهـم..

لا يمكــن لكوكــب مــا أن يغيــر مــداره، أمــا البشــر فهـم يفعلـون، قـد يولـدون فـي مـدار معيـن ثـم يكتشـفون خطـأه.. أو قـد يتوهمـون خطـأه.. قـد يعيشـون فـي مرحلـة تكـون فيها مـدارات أخـرى قـد حققـت تطـاولا براقـا، أو انتصـارات فـي جوانـب معينـة، لهـذا فهـم ينسـلون ليلحقـوا المـدارات الأخـرى، كمـا تفعـل الهزيمـة بنفسـية البعـض..

لا زلنــا نتحــدث عــن الــدوران حــول المركــز! عــن الطــواف!

*   *   *

طوافـك حـول الكعبـة، **هـو تأكيـد علـى التحامـك بمـدارك.. مـدارك الـذي تلتـزم فيـه طيلـة حياتـك.. أي المنهـج الـذي تؤمـن بـه وتؤمـن بصلاحيتـه لخاصـك وعامـك..**

رحلـة حياتـك كلهـا، كمـا يجـب أن تكـون، هـي سـير فـي ذات المـدار، حـول الكعبـة..

أنــت تسـير فــي حياتــك علــى درب أنــت تقـرر مـداره وخطوطـه العامـة.. هـل سيكون منطبقـا علـى المـدار الـذي يريـده لـك الله؟.. نعـم قـد تـزل أحيانـا. قـد تقـف.. قـد تتلكـأ.. **لكـن مـدارك، إن كنـت تسـير علـى مـا أراده الله، ثابـت.. دربـك، وإن تعثـرت عليـه، واضـح..**

كذلـك الطـواف، إنـه رحلـة حياتـك حـول ثوابتـك.. كل حياتـك هـي صـلاة بطريقـة مـا، كذلـك الطـواف، هـو

الصلاة سيرا على الأقدام، مثل رحلة حياتك..

الطواف صلاة يجوز فيها الكلام بنص حديثه عليه الصلاة والسلام: **الطواف بالبيت صلاة ولكن الله أحل فيه المنطق فمن نطق فلا ينطق إلا بخير.**

لا بد أن يكون لهذا معنى وحكمة.. كما في كل شيء في هذا الدين وشعائره..

يمكن أن يكون هذا تذكيرا لنا بأن الطواف **هو رمز شعائري لحياتنا كلها..** ندور وندور حول ثوابت هذا الدين وشريعته، هذا الدوران لا يتناقض مع أن نمارس حياتنا، بل ينظمها فقط، يجعلها مثمرة إذ يجعلها تدور حول ما يجب الدوران حوله..

الطواف فرصة لتذكيرك بأنك ما دمت لا تزال حيا، يمكن لك أن تغير مسارك، أن تصحح مدارك..

أن تلتحم بالمدار الذي خلقت كي تكون فيه..

* * *

الطواف بطريقة ما، يشبه القبلة..

صلاتك باتجاه هذه القبلة، خمس مرات كل يوم، تربطك بما يمثله هذا البيت.. بكونه البناء المستمر، دائم البناء والتجدد، القائم على الشريعة الثابتة..

صلاتك باتجاه البيت، خمس مرات كل يوم، تذكير لك بهذه الثوابت.. تذكير (يومي) لك بالبوصلة التي يجب أن تحدد مسيرتك على أساسها..

الطواف هو تأكيد على هذا.. في الطواف أنت في

داخل المدار، البيت أمامك، وأنت مثل كوكب تطوف حوله.. تستمد من طوافك حوله ما يجعلك في المدار الصحيح لاحقا، في الطواف الآخر.. طواف حياتك..

* * *

مفتاح الدوران عكس عقارب الساعة

كل ما في الإسلام يمين، لكنك في الطواف، تأسيا به عليه الصلاة والسلام، تجعل الكعبة على يسارك، وتسير يمينا، أو ما يعرف اليوم بعكس عقارب الساعة..

كل ما في الإسلام يمين.. ثم تقف أمام الكعبة لتضعها على شمالك.. وتطوف وهي على شمالك.. وكل العالم يمينك**!.. كما لو أنك بهذه الحالة تضع الكعبة على شمالك، لأنك تريد أن تمسك العالم بأسره بيمينك.. الكعبة ستمسك بك.. لكن يدك، التي عليك أن تبني العالم بها، التي سترفع البناء بها.. يدك هذه، ستكون اليمين.. وبها ستبدأ البناء حقا..**

* * *

هذا الاتجاه عكس عقارب الساعة، هو **السير في ذات الاتجاه الذي تسير به الأرض في دورانها..** أي حيث تقع مكة، تدور عكس اتجاه عقارب الساعة..

كل الكواكب في المجموعة الشمسية (عدا كوكب الزهرة)، تدور حول الشمس عكس عقارب الساعة. كذلك الشمس والقمر يدوران حول نفسهما عكس عقارب الساعة.

(عكس عقارب الساعة) هو اتجاه هذا الجزء من

الكون وأنت في الطواف، تتمثل هذا الاتجاه، **أنت تسير مع السنن، باتجاه الزمن، كل ما تبنيه وترفعه وتعليه وترسخه، سيكون باستثمار السنن، لن تستطيع أن تفعل أي شيء مهم بمعاندة السنن أو السير بعكس اتجاهها..**

الطواف مثل قصة حياتك بنسختها التي يجب أن تكون. إنه أن تسير مع السنن، باتجاه ما يجب أن يكون..

* * *

عندما تكون الكعبة على يسارك والعالم على يمينك، فإن **قلبك، الذي في يسارك، يكون أقرب للكعبة!**

القلب الذي على اليسار، هو الذي يجعل العدائين في كل العالم، يركضون في كل سباقاتهم وتدريباتهم، عكس عقارب الساعة.. بعبارة أخرى، **بنفس اتجاه الطواف!**

هذه حقيقة فسلجية علمية، وجود القلب على اليسار من الجسم البشري، و(الركض) عكس عقارب الساعة، يساعد القلب على أداء عمله أثناء الركض، بينما سيكون الأمر مختلفا لو كان اتجاه الركض مع عقارب الساعة..

وهكذا، يكسب العداؤون، قوة إضافية، عندما يكون عدوهم، عكس عقارب الساعة..

باتجاه حركة الأرض والسنن.. والطواف!

لست في سباق للركض.. أنت في طواف..

لكن حياتك هي، بطريقة ما، مثل سباق ماراثون.. يبدأ ساعة ولادتك، وينتهي ساعة موتك، تجمع فيه ما يمكن أن يحسب لك من مساهمة في البناء قيد الإنجاز، وما يمكن أن يحسب عليك من العبث أو اللاشيء أو المساهمة في بناء خاطئ..

فانظر أين يكون قلبك، وماذا يكون على يسارك، وماذا يكون على يمينك، وأين يكون اتجاهك..

* * *

مفتاح الرمل

لأن الحج وسيلة لتقريبك من دورك في الحياة، وجعلك أكثر إتقانا لها.. فإن هذه المشاعر تتضمن أيضا إظهارك لقوتك.. أنت الذي عينك الله خليفة في الأرض..

ولأن الطواف هو رحلة حياتك، فستكون القوة، وإظهارها، جزء من هذا الطواف!

أن تتعبد لله، بإظهار القوة!

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضى الله عنهما - قَالَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَأَصْحَابُهُ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ إِنَّهُ يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ وَفْدٌ وَهَنَهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ. وَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - أَنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ الثَّلاَثَةَ، وَأَنْ يَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ.

مشركو قريش توهموا أن صلح الحديبية سيخنق المسلمين، وكانوا يتخيلون أن المسلمين قد تعودوا جو المدينة على نحو سيجعلهم يتعبون في الطريق، أو أن حمى معينة في المدينة قد أصابتهم بالهزال..

والرسول عليه الصلاة والسلام، يريد أن يري قريش، أن أوهامهم بعيدة عن الواقع.. لذا فقد أمرهم بأن يرملوا..

والرَّمَل هو الهرولة..

بلحظة واحدة، **تحولت الشعيرة إلى ما يشبه الاستعراض العسكري** الذي يرهب قريش ويزيح عنها أوهامها..

والتدريب العسكري، في أرض العدو، يعكس ثقة بالنفس وقوة أكثر بكثير مما تفعل المباغتة بالهجوم على العدو..

وهكذا كان الرمل في الأشواط الثلاثة الأولى، شعيرة تظهر قوتك أمام العدو..

* * *

وعن سهل بن حنيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اعتمر وكان في الطريق قال:

لو أنا نظرنا إلى بعير سمين فنحرناه فأكلناه حتى يروا قوتنا، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ادع بأزواد القوم ثم ادع فيها فإن الله سيبارك فيها ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا قدمتم فارملوا الثلاثة الأشواط حتى تروا قوتكم».

المسلمون نحروا بعيرا سمينا وأكلوه قبل أن يدخلوا مكة، استعدادا وتقويا للموقف، اي أنهم (اكتسبوا القوة) ثم أظهروها في شعيرة الطواف.. ويذكرنا هذا بآية «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» حيث صح **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»**.

ترتبط التقوى هنا بالتزود بأسباب القوة.. بالضبط على نحو معاكس لما أدركنا من مفهوم للتقوى (نسخة عصر الانحطاط)..

للقوة شعيرتها، ولكن الأخذ بأسبابها، هو من أساسات هذه الشعيرة..

كالوضوء، بالنسبة للصلاة!

* * *

الاضطباع.. وهو طريقة وضع ملابس الإحرام أثناء الطواف.. والاضطِباعُ الذي يُؤْمَر به الطائفُ بالبيتِ **أن تُدْخِلَ الرِّداءَ من تحت إِبْطِك الأيمَنِ وتُغَطِّيَ به الأَيسر كالرجل يريد أن يُعالِجَ أَمْراً فيتهيأَ!**

كمن يشمر مستعدا للدخول في عمل ما..

والكتف الأيمن، مع العضد، يظهران.. فتظهر معهما قوتك.. عضلاتك.. يظهر تحضيرك واستعدادك لهذا الإظهار.. وأنت قد شمرت، استعدادا للعمل في هذا العالم..

كل ذلك من خلال الشعائر!

* * *

لكن إظهار القوة أمام كفار قريش، كان له مغزاه وتأثيره وقتها .. فهل انتهى ذلك بانتهاء هذا؟

قطعا لا. الرسول عليه الصلاة والسلام رمل واضطبع في حجة الوداع.. والمسلمون في أقوى حالاتهم..

كما مع سبب النزول الآيات، تتشكل الشعيرة بشكلها

لسبب ما، لكن خصوص السبب لا يلغي عموم معنى الشعيرة..

نعم كفار قريش لم يعد لهم وجود.. لكن كفار الملأ العالمي، ملأ كل زمان ومكان، لا يزالون يعقدون الندوات والمؤتمرات، لاً يزالون يتحينون ضعفنا..لا يزالون يكيدون..

الفرق بين المشهدين، هو نحن... ضعفنا لم يعد شائعة أو خيال.. لم يعد مجرد تعب عابر ناتج عن السفر.. **لقد صار حقيقة.. حقيقة ناتجة عن تخلينا عن اتخاذ الأسباب، عن التزود بالتقوى التي هي الأخذ بالأسباب ضمن معان متعددة..**

ونحن، ابتعدنا عن الشعائر.. لا نحاول أن نكتسب القوة لكي تكون الشعائر معبرة عنها حقا.. الشعائر مجرد حركات نؤديها كما يفعل الإنسان الآلي.. لا نحاول أن نستمد منها ما هي ممتلئة به..

لو أن خطأ أصاب أداء الشعائر، لركضنا نسأل عن الفتوى، (علينا دم أم لا ؟)..

لكن أن تمضي شعائر القوة دون أن ننتبه إلى ضعفنا.. دون أن تستفزنا لنبحث عن أسباب القوة.. لنستحق تأدية الشعائر..

مفتاح الرقم سبعة

نطوف حول الكعبة سبعة أشواط..

ونسعى بين الصفا والمروة، سبعة أشواط كذلك..

وعند الرمي، لاحقا، سيكون هناك سبع حصيات..

ثمة ارتباط واضح، وإن كان مجهول الأسباب، بين الرقم سبعة.. وبين الكثير من المفاهيم في الإسلام.. ليس في الإسلام فقط، بل في الكثير من الأديان السابقة عليه..

لا نتحدث هنا عن أسرار للرقم سبعة، بل عن معناه فقط، إذ لا أؤمن شخصيا بوجود أسرار في البيان القرآني، أؤمن فقط أن قدرتنا على فهم هذا البيان محدودة بزمانها ومكانها، لكن لا أسرار يقصد منها أن تكون (أسرارا خفية) وإلا تحول القرآن إلى طلاسم، وحاشاه، هو الذي أنزل لقوم يعقلون، أن يكون كذلك..

* * *

الرقم سبعة، عند العرب يستخدم للتضعيف والتكثير.. أي أنه يستخدم للدلالة على الكثرة.. والسياق القرآني فرق بين الاستخدامين، الاستخدام (العددي) الذي يعني العدد بعينه.. والاستخدام التكثيري الذي يعني الكثرة والمضاعفة دون أن يعني أنه لا يوجد (عدديا) أيضا..

في لسان العرب الذي نزل القرآن فيه، كانت العرب تقول لمن أحسن إليها: **سَبَّع الله لك! أىَ جَزاك بواحد سَبْعة**

عندما يقولون سبع الله لفلان، كانوا يقصدون أقصى ما يمكن أن يحدث، الحد الأقصى من التوقع ومن النتيجة.. وليس بالضبط (الرقم سبعة) الذي يلي الرقم ستة..

الرقم سبعة في القرآن، وتحديدا عندما لا يكون

مصحوبا بعدد آخر، يشير إلى معنى الكمال وبلوغ الغاية في الخلق تحديدا.

* * *

خلق السماوات، والأرض، ارتبط بالرقم سبعة.. وكذلك خلق الإنسان، عبر أطوار سبعة..

والرقم سبعة يعني عند العرب، التضعيف، والتكثير، وبلوغ الغاية..

إنه الخلق الكامل إذن..

خلق السماوات والأرض.. وخلق الخليفة في الخلق!

والرقم سبعة، عندما يربط بين الإثنين، فهو يربط بين المسؤولية الإنسانية، التي يمتلكها هذا المخلوق الذي خلق بأطوار سبعة.. وبين هذا الكون الذي وجد ليكون خليفة فيه..

الربط هنا، هو بلوغ الغاية في الخلق..

الرقم سبعة، في أطوار خلقك وتشكلك، يذكرك، أنك كمخلوق، مرصود لكي تساهم في دورك في هذا الكون.. أن تكون خليفة الخالق في خلقه.. الطور السابع تحديدا يطلقك في مدى لا حدود فيه..

«ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ». (المؤمنون:١٤)

ليست هذه صدفة قط.. فالسبعة ليس الرقم الأكثر تفضيلا بالمطلق.. الصلوات مثلا خمسة، ولا يوجد أي صلاة من الصلوات الخمس ركعاتها سبعة..

لكن ارتباط السبعة بالخلق.. سيربطك حتما، عندما تستعرض أطوارك السبعة، بما خلقت من أجله..

* * *

الأشواط السبعة في الطواف وفي السعي.. ترتبط بكل ذلك..

الأشواط السبعة هي رمز لأن تكون حياتك، بكل أطوارها، ثابتة حول مركز واحد.. حول شريعة واحدة.. حول منهج واحد..

* * *

مفتاح الحجر الأسود

يبدأ كل شوط، وينتهي، بالحجر الأسود..

لا بد لكل انطلاق من نقطة، ولا بد لكل شوط أن يحدد بدايته ونهايته..

الطواف لو ترك دون نقطة بداية أو نهاية تضبطه، سيجعل الطائفين يفقدون قدرتهم على العد، وعلى معرفة موقعهم من رحلة الطواف.. لكن نقطة بداية كل شوط ونهايته تنظم ذلك.

كل شيء يجب أن يقنن، أن يكون له ضابط واضح.. حتى الطواف..

ولأنه لا بد من نقطة البداية تلك، فلا يمكن أن يكون هناك أفضل من (الحجر الأسود)..

* * *

الحجر الأسود هو كل ما بقي من الجنة على الأرض.. فقد صح أن عليه الصلاة والسلام قد قال **«نزل الحجر الأسود من الجنة أشد بياضا من الثلج فسودته خطايا بني آدم»**

الحجر من الجنة، وهي الجنة على الأغلب التي كان فيها آدم، ووجوده على الأرض يذكرنا حتما بتلك الجنة التي مر فيها آدم بتجربته المعروفة..

لكن ماذا كان جوهر تلك الجنة التي سكنها آدم وزوجه؟

«إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى» (طه: ١١٨ - ١١٩)

«وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» (البقرة: ٣٥)

إنها الجنة التي تسد فيها الحاجات الأساسية لكل إنسان، المسكن، الملبس، المشرب والمأكل.. إنها جنة العدالة الاجتماعية والتوازن الاجتماعي التي يحتاجها كل إنسان لينشأ في بيئة صحية يحقق فيها ذاته وإمكاناته..

إنها ليست جنة اللامقطوع واللاممنوع.. بل هي جنة «ولا تقربا هذه الشجرة»، أي أنها جنة الالتزام بالبعد عما حرم الله، جنة يوجد فيها (الحرام) الذي هو جزء من أي مجتمع متماسك متوازن، سواء عبر عن هذا المنع بالحرام أو بخرق القانون..

الحجر الأسود.. جاء من هذه الجنة.. جنة العدالة الاجتماعية، جنة لا يجوع ولا يعرى ولا يعطش فيها

أحد.. جنة الحياة الكريمة للجميع.. لم تكن جنة الترف والبطر الذي يتجاور مع الفقر المدقع.. لم تكن جنة الملأ الذي يستأثر بـ٩٠٪ من كل شيء ويترك الفتات للأغلبية..

وجوده في البيت الحرام، بداية كل شوط منه وانتهاؤه فيه، كونه جزءا من مناسك الطواف، كل هذا، يجعلنا نرتبط بما تعنيه تلك الجنة.. بقيم العدالة والتوان.

هذا هو الحجر الذي تبدأ منه طوافك، نقطة انطلاقك، المبادئ التي تنطلق منها لتحققها على أرض الواقع.. كل شوط من أشواط الطواف يبدأ من الحجر الأسود، ويعود إليه، كما لو لتذكرك بأن عليك تذكر هذه القيم في كل شوط من أشواط حياتك.. كما لو أن عليك مراجعة ما حققته منها على أرض الواقع في كل شوط من أشواط حياتك..

وهو (أسود) كي نتذكر ما يجب تبييضه في هذا العالم..

* * *

استلام الحجر الأسود، يعني لمسه، أو محاذاته على الأقل..

لا أستطيع إلا أن أفهم ذلك على أنه (استلامه) ليكون لبنة، حجرا أساسا، لكل بناء ستبنيه، لإضافتك الشخصية في البناء الشامل، لبنائك لشخصك، لأسرتك، لمنجزك الشخصي..

ولهذا..

«ليأتين هذا الحجر يوم القيامة له عينان يبصر بهما

ولسان ينطق بـه يشـهد علـى مـن استلمه بحق».

سـيأتي ليشـهد علينـا، ليقـول إن كنـا قـد اسـتلمناه بحـق، إن كنـا وضعنـاه كحجـر أسـاس فـي كل مـا بنينـاه ونبنيـه، أم أنهـا كانـت مجـرد (حركـة) قمنـا بأدائهـا دون تضمينهـا أي معنــى..

*   *   *

تقول عند استلامك الحجر «بسم الله، الله أكبر»..

إنهـا حيـاة جديـدة تلـك التـي يمثلهـا الطـواف.. حيـاة تبدأهـا باسم الله.. **أي بالتفويـض الـذي منحـك إيـاه عز وجـل فـي هـذه الحيـاة.. بتفويـض الاسـتخلاف الـذي يتمثـل حقـا حصريـا لـك، مشـروطا بالسـير علـى مـا أراده لـك فيهـا..**

والله أكبر..

تذكيـر بكونـه خـارج كل المقاييـس.. وبكـون شـريعته، والمنهـج المنبثـق منهـا، هـو الأفضـل حتمـا، وهـو الأنسـب حتمـا، فـي رحلـة الطـواف – رحلـة الحيـاة تلـك..

الله أكبر، حقا، منهجا، شريعة، خيارا..

لا مجرد كلمة تقال على اللسان..

*   *   *

قبـل الوصـول إلـى نهايـة الشـوط، سيكون هنـاك (الركـن اليمانـي).. بالضبـط قبـل الركـن الـذي فيـه الحجـر الأسـود.

الركـن اليمانـي، الـذي نسـتلمه جميعـا سـيرا علـى سـنته عليـه الصـلاة والسـلام، يمثـل تذكيـرا لنـا **كيـف أن البنـاء يبـدأ بحجـر (هـو الـذي ابتـدأ بـه الطـواف) ومـن ثـم يصيـر**

ركنـا ركينـا شـامخا..

فـي السـير بيـن الركـن اليمانـي والحجـر، أي فـي نهايـة كل شـوط، يسـن ذلـك الدعـاء الذي يختصـر جوهـر الطـواف..

عـن عبـد الله بـن السـائب قـال سـمعت رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم يقـول مـا بيـن الركنيـن **«ربنـا آتنـا فـي الدنيـا حسـنة وفـي الآخـرة حسـنة وقنـا عـذاب النـار».**

يأتــي هـذا الدعــاء ليقـول لـك بالمختصـر مـا يجـب أن تكونــه قصــة حياتــك..

إنه السعي إلى الحسنيين.. الدنيا والآخرة..

لا فصـل هنـاك بينهمـا.. لا يمكنـك حقيقـة أن تحـوز حسـنة الآخـرة إن لـم تـؤد فـي الدنيـا (حسـنا)..

حسنتا الدنيا والآخرة، هما جوهر وغاية الطواف..

الطـواف ليـس بمعنـى الشـعائر فحسـب.. بـل بمعنـى مـا سـنفعله فـي حياتنـا لاحقـا..

*   *   *

مفتاح الصلاة في الحرم

ركعتـان بعـد الطـواف، صلاهمـا الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام خلـف مقـام إبراهيم

كل الحـرم (قبلـة).. نتجـه مـن كل بقـاع الأرض نحـو الكعبـة قبلـة لنـا..

لكن هنـا، فـي قلب الحرم، سنختار (المقـام الإبراهيمي).. ليكـون (المصلـى).. المـكان الأفضـل للصـلاة، فـي أفضـل بقعـة للصـلاة علـى وجـه الأرض..

لـن يتمكـن الجميـع مـن الصـلاة فيـه بالتأكيـد.. لكـن تحديده، ونـزول قـرآن فيـه، وتحولـه ليكـون سنة عنـه عليـه الصـلاة والسـلام سيجعل من هـذا المقام، بـكل مـا يحتويـه مـن معـان وقيـم، ركنـا أساسـيا فـي فهمنـا للحـج كلـه..

*　*　*

مقـام إبراهيـم هـو المكـان الـذي وقـف عليـه إبراهيـم عليـه الصـلاة والسـلام أثنـاء بنـاء البيـت..

هـذا المقـام – المصلـى، لـم يكـن الموضـع الـذي صلـى فيـه إبراهيم بالضـرورة.. ربمـا يكون قد فعـل ذلك لاحقا.. لكـن المقـام صـار مقامـا لأنـه المـكان الـذي عمـل فيـه.. لأنـه مـد يديـه ليستلم الحجـر وهـو واقـف عليـه.. وهـو يرفـع القواعـد.. وهـو يشـرف علـى البنـاء..

الكعبـة، قبلتنـا فـي كل مـكان، تمثـل المنهـج، الشـريعة الثابتـة، التـي نـدور حولهـا..

لكـن مقـام إبراهيـم، فـي حضـن الكعبـة، **يدلنـا علـى ذلـك العرق الـذي تصبـب ليرتفـع ذلـك البنـاء..**

وهنـاك، حيـث تصبـب العـرق.. حيـث ارتفـع العمـل.. تصلـي..

*　*　*

الوصـول إلـى لحظـة المقـام الإبراهيمـي، لحظـة العمـل وتصبـب العـرق، لم يكن ممكنا دون كل الخطوات السـابقة..

وموقـف إبراهيـم، علـى المقـام، ارتبـط قبلهـا بذلـك البحـث عـن الإلـه الحـق، بالعقـل الـذي عبـد الـدرب لينـزل الوحـي علـى أرض معـدة جيـدا، بالسـنن، بطمـأنينة القلـب..

«... **فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ**» (آل عمران: ٩٧)

هـل الآيـة البينـة هـي **أن تسـتلهم العمـل مـن المقـام؟ أن تـدرك العلاقـة بيـن الصـلاة والعمـل، بيـن الصـلاة والبنـاء، بـل وبيـن الارتفـاع فـي البنـاء؟**

ربما..

*　*　*

ركعتـان خلـف المقـام، قـرأ فيهمـا عليـه الصـلاة والسـلام (قـل يـا أيهـا الكافـرون) و(قـل هـو الله أحـد)...

ربما لن تتمكن من الصلاة خلف المقام..

لكـن سـتصلي الركعتيـن، وسـتقرأ «قـل يا أيهـا الكافرون» و»قـل هـو الله أحـد»..

لا شـيء بالصدفـة فـي هـذا الديـن.. ولا شـيء بالصدفـة فـي شـعائره..

*　*　*

قل يا أيها الكافرون!

السـورة مكيـة.. نزلـت فـي وقـت كانـت الشـوكة فيـه للكفـار..

وقرأهـا عليـه الصـلاة والسـلام فـي الحـج، فـي وقـت تبدلـت فيـه الأوضـاع، وصـارت فيـه الشـوكة للمسـلمين..

لم يقرأ عليه الصلاة والسلام (سورة النصر) مثلا، التي قد نتخيل أنها مناسبة أكثر لتلك الجموع التي تؤدي مناسك الحج..

لكن لا.. النصر عابر، يمد ويجزر.. النصر نتيجة لاحقا..

لكن الكفر حقيقة ملازمة لوجودنا كبشر على هذه الأرض.. سيكون هناك دوما (كافرين).. وعيك بهذه الحقيقة.. وتعاملك مع العالم على أساسها، هو الذي يمكن أن يوصلك إلى سورة (النصر).. ولوضعية النصر..

* * *

هذه المفاضلة الموجودة في السورة، هذا الوضوح في الحدود بين الكفر والإيمان، هذا الإصرار على أن «لا أعبد ما تعبدون» هو الذي يجب أن يكون موجودا على الدوام..

لماذا يتكرر نفي العبادة، مرة بصيغة «لا أعبد ما تعبدون» ومرة بصيغة «ولا أنا عابد ما عبدتم»؟

النفي جاء مرة بصيغة الفعل «لا أعبد ما تعبدون»، ومرة بصيغة الجملة الاسمية «ولا أنا عابد ما عبدتم»..

النفي بصيغة الفعل، يأتي لنفي (فعل العبادة) الذي قد يحدث دون وعي مسبق، دون سابق نية أو قصد أو تصميم..

يمكن لك أن (تنزلق) لعبادة وثن ما، دون أن تعرف أنه وثن، ودون أن تدرك أنك تعبده، ليست كل الأوثان

أصناما واضحة مثل هبل واللات، ولا كل العبادات لها شكل السجود والركوع الذي يؤدى في حالات العبادة الواعية..

لهذا يقول النفي قاطعا حاسما.. «لا أعبد ما تعبدون».. بأي شكل من أشكال العبادة، حتى لو كان شكلا لا يبدو أنه شكل (عبادة) للوهلة الأولى..

النفي الثاني، «ولا أنا عابد ما عبدتم» هو نفي ليس للفعل الذي تم نفيه للتو، بل نفي لمعنى مقتصر على أن تفعل العبادة على نحو عامد متعمد..

الفرق بين الأمرين مثل أن (يقع أحدهم في كفر) – قد يكون عابرا، وبين أن يكون هذا الشخص كافرا..

* * *

فلم إذن، النفي عن الكفار، جاء مكررا، ولكن بصيغة واحدة؟ «ولا أنتم عابدون ما أعبد»..

لأن عبادة الله، لا يمكن إلا أن تحدث إلا على نحو واع وعامد..

عبادتي واعية. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنا عابد ما عبدتم.

بيني وبين الكفر حدود واضحة لا أسمح لأحد أن يميعها أو يغطيها..

هذه الحدود الفاصلة، تحميك من كفرهم، وتسمح لتجربتك بالنمو والازدهار والتحول لمركز جذب حتى بالنسبة لهم. أما عندما تكون الحدود مميعة، غير

واضحة، فإن تجربتك ستكون معرضة دوما للاختراق.. وسيؤدي هذا دوما إلى ردود أفعال باتجاه التمييع، أو إلى العكس منه..

* * *

لكم دينكم ولي دين، كانت الخط الفاصل بين الكفر والإيمان..

نحن، أنا وأنتم (أيها الكافرون) ننتمي إلى منظومتين مختلفتين تماما. لا لقاء بيننا. نحن ننتمي إلى كوكب آخر.. إلى سلالة مختلفة..

عوملت هذه الآية تحديدا عكس ما نزلت لأجله..

نزلت في سياق المفاصلة، وبعد أن حددت تصنيفهم وتوصيفهم الدقيق «قل يا أيها الكافرون»..

تعامل الآية اليوم، معزولة عن سياقها، من أجل عدم الحكم على الناس أو تصنيفهم أو توصيفهم..

بينما نزلت من أجل العكس بالضبط.. من أجل وضع حدود في التعامل معهم، بعد إشهار تصنيفهم..

دون خجل من ذلك..

نعم.. لكم دينكم ولي دين، ولكن بعد «قل يا أيها الكافرون»..

* * *

لن نبتعد كثيرا عن كل هذا في الركعة الثانية التي سنقرأ فيها «قل هو الله أحد»..

سورة الإخلاص، ثلث القرآن، في الركعة الثانية..

الركعة الأولى كانت عن المفاصلة بين الكفر والإيمان. موقفك العملي من إيمانك بمواجهة الكفر متعدد الأشكال..

لكن الركعة الثانية هي عن هذا الإيمان.. عن كنهه.. بأبسط الكلمات، وبأعمقها في آن واحد..

نزلت السورة في مرحلة مبكرة من الفترة المكية، لا يمكن تحديدها بالضبط، لكنها في الفترة العلنية من الدعوة حتما، بسبب أن نزول السورة قد جاء ردا على سؤال المشركين للرسول عليه الصلاة والسلام..

عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انسب لنا ربك فأنزل الله قل هو الله أحد الله الصمد.

يريد المشركون نسب الله عز وجل**!** تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا..

انسب لنا ربك.. كانت تحديا، المنطق الجاهلي كان يريد أن يعرف من (خلف هذا الرب) الذي يؤمن به محمد.. هل من عشيرة توازي كبرى عشائرهم؟ ..من خلف هذا الذي ينادي بالدعوة لعبادته محمد؟ ما هو تاريخه؟ كيف لنا أن نؤمن به دون أن نعرف نسبه؟**!** نحن لا نزوج أحدا من بناتنا أو أولادنا دون أن نعرف تاريخ العشيرة التي سنناسبها.. فكيف نؤمن برب لا نعرف عن نسبه شيئا**!**..

كم نستغرب اليوم من هذا.. وكم بدا ذلك يومها منطقيا..

كان يمكن أن يأتي الجواب، متحدثا عن الله ومعه حشد ملائكته الذين يسبحون له ويأتمرون بأمره.. كان يمكن أن يأتي الجواب منوها بكل الخلق الذين خلقهم الله، أن تقدم الصورة وقد دججت بحشد من المؤيدين له عز وجل، على نحو يبهر مشركي مكة الذين يفكرون على نحو قريب من هذا..

لكن لا..

الجواب: أنه وحده.. لا أحد معه**!**

* * *

قل هو الله أحد..

تذكرك الآية فورا بأن الأهمية لا تكون قط بالكثرة.. أو العزوة.. أو النسب..

تذكرك الآية فورا، وأنت محاصر بزحام الحج، **بأن لا أحد مهماً حقا في الزحام.. إلا هو.. هذا الأحد الذي ليس معه أحد..**

إنه الصمد، والصمد هو الذي لا يجوع ولا يعطش، مجرد نزع صفتي العطش والجوع عنه سبحانه، سينزعان عنه صفة الضعف البشري. نفي هذا الضعف، سينفي الدافع الأساسي لتكون المجتمعات. سننسف فكرة النسب من الأساس.

أنتم تحتاجون إلى النسب. لأنكم محكومون بضعفكم، أما هو عز وجل، خارج المعادلة..

وهو، الغني عن الحاجة إلى الاستمرار.. المستمر دوما وأبدا، من الأزل إلى المطلق.. قبل البدء، وبعد النهاية..

هو، لا يلد ولا يولد، لأنه خارج الحاجة إلى ذلك، خارج كل ضعفنا البشري المتمثل بالخوف من الزوال..

وبسبب من كل هذا، لم يكن، ولن يكون، له كفوا أحد.. فكل ما سواه، سيبقى محكوما بضعفه..

* * *

النسب الذي طالب مشركو مكة به هو تعبير عن القوة والرفاهية والمنعة والعزة..

ولا تزال النفس البشرية رهينة بنفس ضعفها الذي جعل مشركي مكة يطلبون «انسب لنا ربك».. كل ما تغير هو طريقة التعبير عن هذا الضعف..

واليوم، كل (عقيدة) تعتنق، ستمر من خلال هذه الغربال الجاهلي ذاته، أي عقيدة ستقاس بمقدار التطاول الذي حققته، حتى لو كان تطاولا مبنيا على حافة الهاوية. ستقاس بمقدار الدخل والترف الذي حققته، حتى لو صاحب ذلك تزايدا في الهوة بين الفقراء والأغنياء، وصاحب الترف أعلى معدلات انتحار، وإدمان في العالم..

النسب هو الأصل، وهؤلاء لم يعودوا يبحثون عن نسب الله بالمعنى المباشر، تعالى الله عن أن يكون له نسب علوا كبيرا، لكنهم صاروا، يبحثون عن أصل العقيدة التي تؤمن به.. يبحثون عن (صراع طبقي) مهد لظهور رسالات الأنبياء وشرائعهم..

إنهم يؤمنون، أن هذه الرسالات، كما غيرها من العقائد، قد (ولدت) في ظرف تاريخي معين، وبسبب ظرف تاريخي معين.. وأنها أيضا قد تسبب في ولادة

عقائد أخرى ناتجة عنها..

لكنه هو الله أحد.

الله الصمد، المنزه عن التأثر بأي متغير.. المتعالي عن المتغيرات.. الإيمان به هو الذي يحدث التغيرات في هذا العالم الذي يحتاج إلى التغيير فعلا.. الإيمان به هو المعادلة الصامدة الصعبة في وجه كل التغيرات، في وجه كل ما يظهر ويأفل من عقائد ومعتقدات..

وحدها عقيدة الإيمان به عز وجل، لا تولد من شيء، ولا تلد عقيدة أخرى..

ارتباطها الوحيد بالولادة، هو أننا نملك خيار الولادة الحقيقية عبرها.. فقط..

* * *

السورة الأولى، قل يا أيها الكافرون، كانت مثالا عن التوحيد العملي، عن التوحيد في لحظة المفاصلة والمواجهة مع كل أنواع الكفر..

أما السورة الثانية، قل هو الله أحد، فقد كانت مثالا عن الأساس النظري لهذا التوحيد..

لماذا (الإيمان العملي) قبل (الإيمان النظري)؟ وقد تعودنا العكس؟**!**

لأن هذا الإيمان العملي، المفاصلة الحادة، هو بمثابة (السور) الذي سيحمي الجوهر الأساسي للتوحيد..

لو تساهلت قليلا.. لوجدت أنهم دخلوا عقر دار التوحيد..

لذا، فالمفاصلة أولا.. السور المنيع أولا.. قل يا أيها الكافرون.. لا أعبد ما تعبدون..

ثم بعدها.. قل هو الله أحد..

* * *

قبل أن تذهب للسعي، ستذهب إلى (زمزم) لتشرب منه، كما فعل عليه الصلاة والسلام.

ماء زمزم لا يكتفي بري عروقك وأضلاعك.. بل يتوغل ليصل إلى أعماق روحك.. يسد عطشا أعمق وأعرق في داخلك.. عطش ربما تأقلمت معه وتعايشت مع وجوده عبر سنين نشوئك، حتى تخيلت أن هذا العطش هو الوضع الطبيعي..

شربة من ماء زمزم..

وبعدها، السعي، لتساهم في قصة اكتشاف هذا الماء**!**

مفتاح السعي

كانت أم إسماعيل قد قطعت مع إبراهيم شوطا من دربه، وصارت معالم طريقه جزءا من تشكلها هي أيضا.. فهمت عن السنن، عن الصورة الكبيرة، لا عن الجزء الصغير من الصورة

«إلى من تتركنا يا إبراهيم؟» .. هكذا قالت المرأة التي سيدخل فزعها على ابنها التاريخ..

«إلى الله..» أجاب سيدنا إبراهيم بحسم.

قالت: رضيت بالله..

وحيدان في الصحراء هي ورضيعها.. وشنة من الماء.. كانت أم إسماعيل تعرف أنها ستنفد قريبا.. والصبي يبكي.. يكاد يموت جوعا وعطشا..

لماذا توارى إبراهيم عن هذا المشهد الذي سيدخل تاريخ الشعائر؟

من الممكن القول إن ذلك كان امتحانا لهاجر وإيمانها.. وهو امتحان يمكن أن يمر به أي مؤمن.. ووجود إبراهيم – النبي – الرجل، إلى جانب هاجر، قد يشوش على موقفها الحقيقي المنفرد لأنه سيقدم لها إسنادا يقويها.. كزوج.. وكنبي..

لذا ربما كان يجب أن تمر هاجر بهذا الموقف الهائل، في الصحراء الخالية، ورضيعها يكاد يموت، أن يضمن ذلك في شعائر الحج، فقط لكي نتمثل موقفها.. ونشعر بما يمكن أن تكون قد مرت به..

ربما..

* * *

في السعي، ثمة امرأة تركض من أجل وليدها..

مشاعرها هنا هي أقوى ما يمكن لإنسان، ذكرا كان أو أنثى، أن يشعر به.. أن يتمسك به..

لولا أن الأنثى، لديها هذه الأمومة الطاغية، ليس في بني البشر فقط بل في كل المخلوقات، لولا هذه

المشاعر التي تجعلها حريصة على سلامة (طفلها) أكثر من حرصها على نفسها، لما كان يمكن للنوع الذي تنتمي له، أن يستمر، كان سينقرض حتما..

ونحن هنا أمام مشهد مركز، للأمومة وهي تصارع من أجل الاستمرار بالحياة..

ليس السعي بين الصفا والمروة عن طفل صغير يكاد يموت جوعا..

بل **هو عن هذه المشاعر القوية لأمه، لكي تحميه وتنقذه..**

وعندما تسعى أنت، بين الصفا والمروة، على خطا هاجر، في درب الرواح والمجيء اللاهث اللهفان.. فإنك تتمثل هذه اللهفة، هذا الحرص، تتمثل الشغف، انفطار قلبها على رضيعها، تناسيها خوفها على نفسها، والخطر ذاته محدق بها، من أجل أن تحميه هو..

نريد الشغف ذاته.. اللهفة ذاتها.. القلق والأمل ذاتهما..

لكن ليس على الصبي ذاته.. ليس على أي صبي بالإطلاق!

لن تكون مؤمنا حقا، مؤمنا حقا بمعنى أكبر وأعمق من مجرد التصديق، إلا إذا أحببت دينك وحرصت عليه ودافعت عنه حرصك على ابنك الذي يكاد يحتضر ويحتاج إلى دواء أو علاج عاجل..

السعي هو عن هذا، السعي هو أن تعمل لدينك، لتكون ما أمرك به ربك، بنفس الشغف واللهفة اللذين ستملكهما نحو طفلك الذي يكاد يفطر قلبك بصراخه

ألما أو عطشا أو جوعا..

السعي **هو أن تملك شغف هاجر، وتوجهه نحو عملية البناء المستمرة، على القواعد والأسس..**

*   *   *

لعلك أيضا تسعى من أجل صبي، يكاد يحتضر..

هذا الصبي هو أنت.. عليك أن تسعى، سبع مرات، في رمز لرحلة حياتك كلها، لأجل أن تجد ما ينقذه..

هذا الصبي هو كل ما كان يمكن أن تكونه..

في السعي تدرك ذلك.. لم يمت بعد..

لكن عليك أن تسرع كي تلحقه..

*   *   *

قال عليه الصلاة والسلام عندما بدأ السعي: **«اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»**

السعي مستمر.. لكن المهم أن يكون سعيا مثمرا، ينقذ ذاك الصبي المشرف على الموت..

المهم أن يأخذ شغف السعي.. نحو الاتجاه الصحيح، الذي يتجاوز مشاكل الفرد، مشاكل الأنا، نحو الـ (نحن).. نحو جعل هذه الـ (نحن) جديرة بما خلقها الله من أجله..

*   *   *

من بين كل الشعائر، فإن شعيرة الصفا والمروة، قد حددت بأنها من «شعائر الله»...

«إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ

اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ» (البقرة: ١٥٨)

مجرد ذكر وتأكيد ذلك، يحسم كل جدل يمكن أن يستثمر في «لا جناح عليه أن يطوف بهما».. إنها من شعائر الله.. وبعض الأركان الأخرى لم تذكر أصلا في القرآن.. فكيف بما ذكر بهذا الوضوح..

والشعيرة هي العلامة..

والمعنى هنا شديد الوضوح .. أن تكون الشعيرة علامة على طريق خلاصك..

الشعائر، علامة على دربك نحو ما أراده الله لك..

والصفا والمروة، هما علامتان حتما على ذلك..

*   *   *

الصفا هو الحجر الأملس الذي لا ينبت عليه شيء.

والمروة هو الحجر الأبيض الذي تقدح منه النار ويستعمل لصنع أدوات الذبح.

وهنا نجد الصفا والمروة يمثلان ما كان علامة من علامات التطور في تاريخ البشرية.. علامة هامة على درب استخدام وتسخير ما في الأرض لصالح خدمة الإنسان..

كان استخدام الحجر ليكون أداة قطع، قفزة مهمة للبشرية في درب تطورها.. به انتقلت من عصر الرعي إلى عصر الزراعة، تمكنت من تدجين الحيوانات، واستثمار منتجاتها..

كان اكتشاف النار، علامة فاصلة غيرت حياة البشر، إذ أنه فتح الباب أمام سلسلة أخرى من الاكتشافات والاستخدامات...

في السعي تنتقل من الصفا، الحجر الأملس، إلى الحجر الذي أمكن للبشرية أن تقفز قفزاتها العملاقة عبر استثماره..

ليس هذا عبثا..

بل هو تمثيل لرحلة حياتك كما يجب أن تكون، أن تبحث عن ما ينفع الرحلة ولو في الصخر، ولو في الحجر، ما قد يبدو بلا نفع في البداية، قد يفتح الباب نحو ما لا يمكن تخيله من منافع..

لكن ذلك ما كان يمكن أن يحدث، لولا الارتباط مع الصخر الأبيض، قادح النار والأداة القاطعة..

التحام الأمرين، هو ما سينتج ذلك..

إنه السعي بين الصفا والمروة..

السعي الذي سيجلب الأدوات والوسائل..

سنتذكر هنا ما قاله عليه الصلاة والسلام، «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»..

وسترى معنى جديدا في السعي، وفيما كتبه الله علينا، وفيما أنجزته البشرية..

* * *

هذا سيقودنا إلى سؤال آخر..

هل كانت الوسائل والأدوات، التي أنتجها سعي البشر،

لخدمة الإنسان؟ أم أنها استخدمت أيضا لغير صالحه؟

لهذا، ولمنع انحراف الوسائل عن الغايات، الوسائل الناتجة عن السعي بين الصفا والمروة، نقف عند كل منهما، كل مرة، نرتقيهما، ونتوجه إلى الكعبة، إلى القبلة، إلى ميزان الثوابت والمعايير..

في كل وسيلة يصلها البشر.. تقول لنا شعائر السعي، أن نعرض استخدامها ونتائجه على معاييرنا وثوابتنا ومقاصدنا..

ولهذا أيضا جاءت صيغة الدعاء والذكر التي تقال عند ارتقاء الصفا والمروة لتكرس ما سبق.. كما لو كان الدعاء هنا إعلانا لثوابت العقيدة كلها..

نقرأ أولا قوله تعالى: **«إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم». ونقول: «نبدأ بما بدأ الله به».**

ثم يبدأ بالصفا ويرتقي عليه حتى يرى الكعبة. فيستقبل الكعبة فيوحد الله ويكبره فيقول: **الله أكبر الله أكبر الله أكبر (ثلاثا)..**

لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. يقول ذلك ثلاث مرات ويدعو..

الله أكبر، ثلاثا، من كل تلك الوسائل التي انحرفت عن الغايات. الله أكبر أيضا من الكسل عن السعي، من عدم الوصول إلى الوسائل، من عدم استكشاف هذه

الوسائل.. من الكسل عن ربطها بالغايات..

سنسعى في درب حياتنا بكل الأحوال، لكن المهم أن يكون سعينا على النحو الذي يرتضيه الله لنا..

ذلك التوحيد الذي ستعلنه وأنت على رأس الصفا، وربطه ب(**يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير**)، سيجعلك في موضع يقترب من (هاجر)، التي تركت ابنها وهو بين الموت والحياة، ثم وهبها الله عز وجل، ما جعل من سعيها ذاك شعائر يؤديها الملايين من المسلمين..

ثم صيغة توحيد أخرى يلحقها **«أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»**..

هنا تجد النهاية القصوى لما مرت به هاجر: فتح مكة.. لقد ركضت من أجل صبيها هنا في هذه الأرض القاحلة.. وكان من نتائج قدرة الله أن تصبح هذه البقعة قبلة للعالمين

يضعك ما تقول هنا، وأنت على الصفا، بين حالتين، حالة أم إسماعيل وهي تهرول من أجل رشفة ماء لصغيرها..

وبين حالة الفتح، حالة النصر الكامل الكاسح..

المشهدان يتكاملان..

لا يمكن لك أن تصل إلى هذا النصر الكامل المبين.. دون أن تمر أولا بالسعي الذي مرت به أم إسماعيل.. بذلك الجهد والشغف والقلق الذي مرت به..

نعم.. أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده..

ولكن عبده الذي نصره، لم ينتظر النصر ليهبط عليه من السماء، بل أنجز ما عليه، سعى ليصل إلى استحقاق النصر، ثم جاء ما استحقه رغم تفوق (الأحزاب) في الكثير من النواحي عليه..

التأكيد على (**عبده**) هنا، على كونه كان منفردا، تذكير بأن كل الأمور الكبيرة، تبدأ من فرد واحد.. مرة إبراهيم.. مرة هاجر.. مرة محمد عليه الصلاة والسلام..

كلهم كانوا أفرادا، لكنهم، بالتدريج (امتلكوا) الأدوات والوسائل التي جعلت دعوتهم تخرج عن نطاق الأفراد والجماعات الصغيرة لتمثل الإنسانية جمعاء..

تمثل الإنسان كما أراده الله أن يكون..

*   *   *

مفتاح زمزم

«وجعلنا من الماء كل شيء حي» (الأنبياء: ٣٠)

الماء أصل كل حياة.. في العلوم، في الحياة اليومية.. وأيضا في الشعائر..

لكن زمزم، أكثر من ذلك..

إنه ليس مجرد ماء عادي..

الماء الذي هو ذرتا هيدروجين وذرة أوكسجين يمثل الحياة المادية.. حياة التنفس. الأكل. الهضم. الأيض.

لكن الحياة أعمق من هذا.. الحياة تشمل الجانب

المادي، ولكنها أيضا تشمل المزيد..

المزيد الذي لا يتعارض مع الجانب المادي، ولكنه في الوقت نفسه يجد أبعادا أعمق تعطي معنى الحياة الحقيقية..

ماء زمزم لا يمثل الماء الذي هو أصل كل شيء حي بالمعنى المادي فحسب..

بل هو يمثل أيضا الحياة الأعمق، الحياة بأبعادها الأخرى، التي تحقق للإنسان هدف وجوده.. الحياة التي يكون فيها (خليفة في الأرض) كما أراد له الله أن يكون..

إسماعيل لم يرتو بماء زمزم وينج مما نسميه بالموت المحقق فقط ليعيش حياة ببعد واحد، حياة بيولوجية ليأكل ويشرب ويتناسل فيها.. لا.. **حياته كانت حياة حقيقية، بأبعادها القصوى.**

وزمزم كان مفتاح الدخول لها..

ماء زمزم هو رمز لأصل كل ما هو حي حقا.. حي كما يريده الله أن يكون..

إنه رمز لما يدعونا الرسول إليه، ليحيينا..

كما ينزل الله الماء من السحاب فيحيي به الأرض الميتة..

كذلك ينزل الشريعة، الوحي، ليحيي بها الإنسان الميت.. المجتمع الميت.. البلد الميت..

ماء زمزم لا يمثل ماء المطر الذي يحيي الأرض بعد موتها..

إنه يمثل ما يحيا به الإنسان في البعد الأعمق للحياة.. مزم، رمز للشريعة التي جاء بها الوحي..

التي تصلح الإنسان، ومجتمعه.. بعبارة أخرى: تحييه**!**

*   *   *

عَنِ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِى وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِى، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِى صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ...

جبريل غسل قلبه عليه الصلاة والسلام به**!**

هذا التفاعل بين الماء وقلبه عليه الصلاة والسلام، يزيد من تعلقنا بالماء، بكل ما يحتويه ويمثله من معان..

وأنت تملك الخيار أن تتذكر ذلك، وأنت تشرب هذا الماء، بين الطواف والسعي، أو أثناء السعي..

تعرف أن قلبك لن يكون كقلبه يوما ما.. لكنك تريد من زمزم، أن ينظف قلبك أيضا..

أن تبدأ به، كما بدأ عليه الصلاة رحلة إسرائه. تبدأ مسراك من ليلك الطويل إلى غد أكثر إشراقا..

أكثر وضوحا.. أكثر إثمارا..

*   *   *

صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه **«كان يحمل ماء زمزم في الأداوى والقرب وكان يصب على المرضى ويسقيهم»**

كما صح عنه أنه قال **«ماء زمزم لما شرب له»**

هل يعني هذا وجود تركيبة مادية معينة في جزئيات ماء زمزم؟

لم يثبت هذا عمليا. وربما ليس هناك من داع أصلا .. زمزم ليس عن الحياة المادية بمعناها الضيق، بل الحياة بأبعادها الأعمق..

فلماذا إذن يُسقى للمرضى؟

لأنه ببساطة، **عندما تؤمن بما يمثله، فإن إرادة الحياة فيك تصبح أقوى**.. وعندما تصبح إرادة الحياة أقوى، فإن جهازك المناعي، سيتعامل مع أمراضك (الجسمية) على نحو أكثر فاعلية وقوة..

«زمزم لما شرب له».. يمكنك أن تسد عطشك وظمأك.. ويمكنك أن تستذكر التاريخ بأكمله..

ويمكنك أيضا أن تأخذ قلبك.. وترميه في زمزم..!!

*   *   *

مفتاح منى

عندما تذهب إلى منى، سيبدو لك أولا، أن لا شيء هناك لتفعله..

تلقي برحالك هناك، ثم تنتظر (أو سيبدو لك أنك تنتظر) أن يأتي يوم الذهاب إلى عرفة..

ليس من شعائر محددة.. هكذا ستعتقد.. وربما ستتساءل..

لكن الحقيقة هي أن الشعيرة في منى، هي **أن (تعيش) مع نفسك، ومع الملايين** من حولك الذين سيكون لزاما عليهم أن يكونوا في الوقت نفسه..

مهما كانت ظروف حجك ميسرة، وبمعزل عن عدد (النجوم) التي ترفعها حملتك، ومهما كنت في ظروف مرفهة بالنسبة للآخرين.. فإنك ستكون في منى، مع جمع من الناس، تشترك معهم في حيز ضيق في نوم ومأكل و(قضاء حاجة).. حتى لو كنت تعرف البعض منهم من قبل، حتى لو كنت اتفقت معهم مسبقا على الحج، فإنك في الحج، ستتعرف على جانب آخر منهم، كما سيتعرفون على جانب آخر فيك.. أن تتعرف على أحدهم وتعرفه لسنين في الحياة اليومية، أمر مختلف تماما عن (التعايش) معه في حيز ضيق تشاركه فيه في كل شيء في أدق التفاصيل الشخصية..

الأمر موجود في الحج كله، لكنه في منى (أكثر كثافة)..

التحدي الأكبر في منى هو أنت..

لا معنى للاءات الحج الثلاث إن لم تخالط الناس وإن لم يخالطوك.. هناك الامتحان الحقيقي والاختبار الحقيقي..

هنا قبولك للناس، هو الشعيرة..

ليست هذه نسخة (شعائرية) من مفهوم قبول الآخر الذي يروج اليوم، أنت هنا تتقبل أشخاصا لا شك في وجود مشترك عقائدي معهم.. لا شك في أنهم يؤمنون بثوابت تؤمن أنت بها أيضا.. لذا فالتعايش مع ما يبدر منهم، مع ما هو طبيعي أن يبدر منهم كبشر، هو تعايش

مـع نفسـك بطريقـة أو بأخـرى.. هـو تقبـل للنفس البشـرية فـي عمـوم حالاتهـا..

فـي منـى، **تتخلـص مـن عاداتـك السـيئة فـي التأفـف الزائـد عـن الحـد مـن عـادات الآخريـن..**

فـي منـى **تهزم الأنـا التـي فـي داخلـك..** الأنـا التـي كانـت دومـا تمنعـك مـن الذوبـان فـي الــ (نحـن)...

الأنـا التـي كنـت تعتقـد أنهـا أعـز مـن أن تـذوب فـي جمـوع الآخريـن..

*   *   *

قيل عن منى أنها سميت بهذا الاسم لسببين..

السبب الأول لكثرة ما يمنى فيها من دماء الأضاحي..

ربمـا لـم يعـد الذبـح يـدار هنـا فـي منـى.. ربمـا لـم تعـد تـرى الدمـاء فـي منـى..

لكـن ثمـة ذبيحـة أخـرى لا يمكـن أن تذبـح إلا هنـا فـي منـى..

ذبيحـة أخـرى، يجـب أن يرهـق دمهـا هنـا فـي محـراب النفس البشـرية التـي تـذوب فـي الجمـوع فـي منـى..

يمكنك أن تذبحها في أي مكان..

لكـن هنـا.. فرصـة ذبحهـا أقـوى.. ربما لأنك فـي الظروف العاديـة لا تنتبـه إلـى هـذا الـذي يجـب أن تذبحـه.. لا تنتبـه لهذا الوحـش الكاسـر المتنكـر بـزي لطيـف ظريـف..

لكـن هنـا، فـي منـى، لا يمكـن لتنكـره أن يخدعـك.. لا تملـك هـذا الخيـار أصـلا.. لأن خداعـه لـك قـد يـودي برحلتـك كلهـا..

هذا الوحش **هو ذلك الطاووس الكامن في أعماقك..**

الطاووس الموجود عند أغلبنا، ولو بنسب متفاوتة..

طـاووس الأنـا.. الـذي يشـكل عائقـا أمـام إنسـانيتك كـي تتفاعـل مـع الآخريـن.. كـي تكمـل وجودهـا بهـم..

منـى.. يـراق فيهـا الـدم.. الذبائـح كلهـا كانـت تذبـح هنـا سـابقا..

لكـن **الطواويـس لا بـد أن تذبـح هنـا أيضـا.. داخـل محـراب النفـس البشـرية، فـي منـى..**

إن لم تذبح هنا، ربما لن تذبح أبدا..

*   *   *

«قيـل عـن سـبب التسـمية أيضـا أن ابـن عبـاس، رضـي الله عنـه قـال: إنمـا سـميت منـى منـى؛ لأن جبريـل حيـن أراد أن يفـارق آدم عليـه السـلام قـال لـه: تمـن، قـال: أتمنـى الجنـة فسـميت منـى لأمنيـة آدم عليـه السـلام»)

لا نعرف الكثير عن صحة الخبر..

لكـن إن صـح، يكـون هنـا هـو المـكان الـذي فـارق فيـه آدم جبريـل..

بعبارة أخرى..

هـذا هـو المـكان **الـذي واجـه فيـه آدم الأرض منفـردا..**

واجـه الحقيقـة القادمـة.. واجـه الحقيقـة المـرة.. حقيقـة أن عليـه أن يواجـه الأمـور منفـردا مـن الآن فصاعـدا..

وكان أن تمنى الجنة..

الجنـة التـي تمناهـا هنـا كانـت الجنـة التـي خـرج منهـا للتـو..

جنـة المسـاواة، جنـة «أن لا تجـوع فيهـا ولا تعـرى».. جنـة الحاجـات الأساسـية التـي تسـد متطلبـات للجميـع..

جنـة الالتـزام بالحـد المحـرم.. لا جنـة اللامقطـوع والـلا ممنـوع..

كان آدم يريد أن يعود إليها..

واليوم، في منى، كل هؤلاء لا يتمنون غير الجنة..

منـى، حيـث يفتـرض أن يكـون الجميـع فـي حالـة (مسـاواة).. ولـو مسـاواة مـن ناحيـة نقطـة الانطـلاق..

في منى، نتذكر..

تمنى آدم الجنة، وكان قد تركها للتو..

فـي منـى، نتمناهـا، ولكـن علينـا أن نتذكـر كيـف خسـرها آدم..

كيـف تسلل إبليس إليـه مـن حـب التميـز، مـن أن يكـون (ملـكا) مـن (أن يكـون مـن الخالديـن).. مـن تلـك الشـعارات التـي لا يـزال أتبـاع إبليـس يرددونهـا ويروجـون لهـا عبـر أسـماء جديـدة.. (الرقـي، التمـدن، التقـدم...).

خسرها آدم هناك.. وتمنى العودة لها هنا في منى..

فهـل يعقـل أن نتمناهـا هنـا، بينمـا وعـود إبليـس تحتكرنـا وتمـلأ كل حياتنـا التـي تركناهـا خلفنـا فـي بيوتنـا؟

هـل يعقـل أن نتمنـى العـودة لهـا، وكل حياتنـا تسـير عكـس التخطيـط لهـذه الرحلـة..

منـى..

قد تكون منى مهبط الأمنيات..

لكنك لم تأت هذا الطريق كله كي تتمنى..

لقد جئت كي تحقق أمنياتك..

* * *

وعندمـا ينسـحب الحجيـج مـن منـى، أو مـن عرفـة، أو حتـى مـن مزدلفـة - التـي لـن يبقـوا فيهـا أكثـر مـن سـاعات -، فإنهـم يخلفـون وراءهـم (شـاهدا) كبيـرا علـى ذنـب لـم يفكـروا ربمـا بالاسـتغفار منـه، أو بعـدم فعلـه..

يحتـاج هـذا (الشـاهد) إلـى حشـد هائـل مـن عمـال النظافـة لإزالته!

أتحـدث عـن شـاهد مكـون مـن أكـوام قـاذورات سـتجدها فـي كل مـكان مـن هـذه الأماكـن..

* * *

قـد يخطـر فـي ذهنـك قبـل الحـج أن مـن يذهـب إلـى الحـج يمثـل (عينـة) إيجابيـة مـن هـذه الأمـة.. لكـن هنـاك ستكتشـف أن الأمـر أعقـد مـن هـذا الأمـر، وأنهـم قـد يرغبـون فـي آخـرة أفضـل، لكنهـم لـم يربطـوا مصيرهـم فـي الآخـرة بواقعهـم فـي هـذه الحيـاة.. بمحاولتهـم تغييـره..

ستری في منى كل ما يعكس هذا الواقع السيئ..

سترى الأزبال والقاذورات في كل مكان.. **سيحدث ذلك من أمة قال لها نبيها إن إزالة الأوساخ عن الطريق جزء من عقيدتها وإيمانها..**

سترى قلة النظام والتدافع من أمة **لها سورة في كتابها اسمها سورة الصف..**

سترى الخوض في صغائر الأمور والتفاهات.. سترى وتسمع كل ما لا تتوقعه من أمة كانت يوما ما «خير أمة أخرجت للناس»..

* * *

في منى ستواجه الحقيقة التي كنت تحاول أن تغض الطرف عنها، نعم **كنت تعرف دوما أن الأمة ليست بخير، لكن على نحو ما كنت تعتبر أن الأمر لا يخصك.. نفسي نفسي..**

في منى، تصطدم أمنياتك بالواقع.. لا نجاة فردية هناك..ها أنت في الحج، في الطريق الذي تعتقد أنك ستنجو عبره، لكنك لست وحدك، لست في صومعة، لست منعزلا على قمة جبل، أنت هنا مع من حولك، بل إن نجاحك في تخالطك معهم وفق اللاءات الثلاثة للحج، ستحدد نجاحك في الحصول على ما تريد من الحج..

لو كان يمكن للنجاة أن تكون فردية (على نحو دائم) **لما كان هناك داع لأن تكون الفريضة جماعية، ولما كان هناك من داع لأن تكون هناك لاءات تنظم علاقتك بمن حولك**، كان يمكن أن يقال لك أن تؤثر العزلة، أو حتى

الصوم والانعزال والانشغال بالشعائر..

لكن لا.. ليس من صوم هنا، بل «أيام أكل وشرب»)، وهذا يؤكد على الاختلاط (بضوابط اللاءات بالتأكيد)..

* * *

عن أبي الطفيل قال: سمعت ابن عباس، يسأل عن منى، ويقال له: عجبا لضيقه في غير الحج فقال ابن عباس: إن منى يتسع بأهله كما يتسع الرحم).

كما يتسع الرحم!..

يا للكلمة الهائلة..

إنها الولادة التي تحدثنا عنها مجددا. الولادة التي هي الهدف الأقصى من الحج..

* * *

مفاتيح عرفة

المكان: عرفة..

الزمان: عرفة..

والمناسبة: عرفة أيضا..

أن تعرف أكثر..

* * *

عرفة..

جبل ما، ليس **عليك أن تعتليه، يكفيك أن تكون في محيطه لتكون قد ارتقيت أعلى مناسك الحج**، يكفيك أن تكون عند سفحه، لتكون قمته متاحة، كما لو أن العبرة هنا بتذكيرك بأن وجودك (الشخصي) على القمة ليس أمرا مهما، **بقدر وجودك ضمن أمة تكون على القمة..**

عرفة، ليس الأعلى بين جبال مكة حتما، رغم ذلك فإنك ستكون في (قمة العالم).. كما لو أن الشعيرة تعلمك **أن الأعلى ليس بالضرورة هو الأكثر ارتفاعا بعدد الأمتار، كما لو أن المكان يعيد تعريفك بوحدات القياس المهمة حقا..**

بوحدات قياسك الحقيقية..

*　　*　　*

لا يمكن أن تهرب من معنى كلمة عرفة..

لا يمكنك أن تهرب من **ارتباطها بالمعرفة..**

لا يمكنك أن تهرب **من ارتباطها بجبل.. بكل ما يحمله الجبل من شموخ وعلو..**

لا يمكنك أن تهرب من كونها الشعيرة الوحيدة التي **اختُصر الحج بها، الحج عرفة..**

تعيد ترتيب أفكارك كما لو أنها عدة التسلق التي تحتاجها لترتقي هذا الجبل..

المعرفة جبل، جبل ترتقيه بطريقة ما، وهذا هو جوهر الحج كله..

*　　*　　*

معرفة ماذا؟

في عرفة ثمة مجال لك كي تعرف نفسك أكثر..

كيف؟

طلب المغفرة بحد ذاته، يتطلب منك بطريقة ما مراجعة ذنوبك..

أنت تعرف تماما ما الذي تطلب المغفرة عنه..

ربما لا أحد يعرف عنك ما تريد مغفرته..

حياتك تستحق أن تراجعها..

حياتك تستحق أن تعرفها..

على عرفة ستعرف!

والمعرفة قوة!

*　　*　　*

أنه أن تعرف نفسك..

وأن تعرف ربك، الذي تطلب منه المغفرة..

لا شيء يجعلك تعرف عظمته حقا، أكثر من أن ترى نفسك في ضعفها..

وأن تعرف أيضا ذلك الإنسان الآخر الذي تتمنى أن تكون بعد أن ينتهي هذا اليوم..

*　　*　　*

عرفة هي قمة العالم بطريقة ما..

قمة العالم التي انطلقت إليها من **«فج عميق» قد**

يكون موجودا في تضاريسك الشخصية، في انكساراتك، في الكدمات الموجودة في داخلك والتي لا يراها ولا يعرف بوجودها أحد سواك..

عرفة هي قمة العالم..

ولديك اليوم، الزمان والمكان، الفرصة للتسلق والوصول لها..

لديك الفرصة لتضع عَلَمك هناك على القمة..

عَلَم «أن تعرف أكثر»..

* * *

لم يختصر الحج في أي شعيرة أو أي يوم، كما حدث مع عرفة.. حيث قال عليه الصلاة والسلام «الحج عرفة»..

لم يقل – عليه الصلاة والسلام - الحج طواف أو سعي أو رمي أو أي شيء آخر.. على أهمية كل هذا..

لكن عرفة، هي القمة التي تقود إليها كل الخطوات السابقة في رحلة الحج.. لا يمكن حذف شيء مما سبق لأنه لن يوصل إلى القمة.. لكن القمة قمة..

وعرفة ليست مكانا فحسب، بل هي مكان محدد في يوم محدد، إنها مثل الحج كله، تربط الزمان بالمكان..
وفي هذا (الزمان - المكان) يحدث أن..

ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة

فيقول: ما أراد هؤلاء؟)

إن الله يباهي بأهل عرفات ملائكة السماء فيقول انظروا إلى عبادي هؤلاء جاؤوني شعثا غبرا).

ليس العتق الذي لا يحدث في أي يوم آخر فقط..

بل أيضا الله يباهي الملائكة..
لم يا ترى؟

لا بد أن يكون ثمة شيء ما في عرفة يجعل هذا اليوم يحصل على أكبر عتق من النار..

ويباهي الله فيه ملائكته..

نعم.. ثمة شيء ما في عرفات.. على عرفات.. لا يمكن لهذا الفضل أن يكون اعتباطا، حاشا لله، بل لا بد أن يرتبط بأمر ما يخصنا جميعا.. يخص البشرية كلها في رحلة بحثها عن ذاتها، في رحلة مخاضها نحو الولادة..
ثمة شيء في عرفات..
ولا بد أن نجده..

* * *

«أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بـ (نعمان) - يعني عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلا قال: *(ألست بربكم قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من

قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) (الأعراف: ١٧٢)»).

إنها لحظة الميثاق إذن..

اللحظة التي أخذ فيها الله الميثاق من البشرية.. أخذ فيها منهم العهد على أنه ربهم..

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» (١٧٢: الأعراف)

تلك الشهادة التي غرست في أعماقنا، في لا وعينا، في فطرتنا، ذلك الشيء الغائر فينا، الذي نجهل تفاصيله وكنهه.. ولكن نعرفه، شيء ما، **يقول لنا إننا نعرف أن ثمة إله واحد هو الخالق والمبدئ والمعيد، وأنه خلقنا كما خلق كل شيء، وأنه كلفنا بما لم يكلف به باقي خلقه..**

نعم.. شيء ما في أعماقنا يقول لنا على نحو غامض وشفاف، كما لو أنه كان في خلفية ذاكرتنا، في جيناتنا، في ذاكرة كرياتنا الدموية.. شيء يقول لنا إننا نعرف ذلك كما لو أننا شهدنا عليه قبل ولادتنا..

لكن الإنسان، كما تعلمون، سمي إنسانا لأنه ينسى..

وربما في هذه الحالة لم ينس.. بل تناسى.. ثم تراكمت على ذاكرته التفاصيل، ومن ثم حرص على عدم تذكير نفسه.. وانتهى الأمر بأنه لم يعد يتذكر..

لكن سيبقى شيء ما، حتى في صلف الإلحاد، في تعجرفه، سيكون ثمة شيء ما، ثمة إقرار عند الإنكار، ثمة ضعف في الصلف..

ثمة شيء.. نعرفه ولا نعرفه. ندركه دون أن نراه. نفهمه دون تفاصيل، نقوله، لكننا نعلم، أبجدياتنا لن تعبر عنه تماما.. ستفشل في ذلك..

ثمة عهد بيننا وبينه.. ميثاق.. أشهدنا على أنه هو الله ربنا.. وشهدنا..

ثم انسللنا من ذلك.

أنكرنا شهادتنا.

صرنا شهود زور..

* * *

لا نعرف كيف حدث ذلك. كيف أخذ الله من ظهور بني آدم، ذلك الميثاق..

لا نعرف كيف.

ولا نعرف متى..

ولكن نعرف أين..

نعرف أين حدث ذلك.

وهذه المعلومة قد تفتح الأبواب.. نحو المزيد..

* * *

على عرفة إذن، كما جاء في الحديث الصحيح)..

على عرفة حدث هذا الحدث الهائل، خارج التاريخ، في المنطقة بين الوعي واللا وعي، بين الإدراك والمعرفة.. بين الذاكرة الواعية والوجدان، بين الحلم واليقظة..

على عرفة، حيث نقف اليوم، حدث ذلك..

الكيف مجهول، والميثاق معلوم.. والإيمان به واجب..

والمكان، هو في الذروة: عرفة..

*   *   *

الآية التي ذكر فيها ذلك الميثاق، في سورة الأعراف..

وسورة الأعراف، تتمركز، في موقف رئيسي لها، **على أولئك الذين يقفون على (الأعراف).. بين الجنة والنار..**

يقفون على مرتفع ما.. فالأعراف كل ما ارتفع من الأرض)..

الأعراف، عرفة.. عرفات..

لا يمكن أن يكون ذلك صدفة.

حاشا لله..

لا صدفة..

تتناول سورة الأعراف قصة حياة البشرية منذ الخلق الأول.. منذ أن سجدت الملائكة لأبينا آدم، ورفض إبليس ذلك، ومن ثم طرده من الجنة «مذموما مدحورا» وقاسمه أن «يقعدن لنا على الصراط المستقيم»، ومن ثم غوايته لآدم وزوجه تحت شعار النصيحة، وطردهما من الجنة إثر ذلك، وهبوطهما إلى الأرض «بعضنا لبعض عدو»..

كل ما حدث وسيحدث على الأرض سيكون امتدادا لما حدث هناك، إبليس مصمم على الاستمرار في غواية آدم، بأسلوب النصح والإغراء بالتقدم والرقي غالبا، وآدم، على الأقل بعضا من أولاده، لا يزالون يسقطون، لا يزال بعضهم لبعض عدوا..

تأخذنا سورة الأعراف إلى قوم نوح، إلى عاد، إلى ثمود، إلى قوم صالح، إلى قوم لوط، إلى مدين، إلى قوم موسى..

في كل تلك المجتمعات، كان الصراع يأخذ أشكالا مختلفة، لكن لو أزلنا التفاصيل، لو محونا الأسماء والأماكن، لو نزعنا إلى التجريد، لوجدنا أن كل ذلك يشترك فيما يعود إلى ما حدث مع آدم.. وإلى القسم الإبليسي.. وإلى نتائج ذلك وتوابعه..

*   *   *

لكن ثمة شيئا مختلفا في سورة الأعراف، يمثل إضافة لما سبق في السور القرآنية..

إنه ذلك **السور..**

ذلك المرتفع الذي يقف عليه ناس لينظروا في اتجاهين

مختلفين، نحو مصيرين مختلفين..

«وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ . وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ . أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» (الأعراف: ٤٦-٤٩)

على الأعراف يقفون، نظرة إلى من في الجنة.. نظرة طمع.. ونظرة إلى من في النار، نظرة خوف..

إنها نظرة إلى المستقبل، إلى المصير..

إنه استشراف لمستقبلك، لمصيرك، بمقارنة أعمالك بأعمال هؤلاء في مصيرهم الأخير..

على مرتفع ما، تقف، تنظر إلى الماضي وإلى المستقبل، تنظر إلى الخلف، لترى ما قدمت وما قدموا.. وإلى الأمام لترى نتائجهم، وتقارن ما قدمت بما قدموا..

الأعراف، المرتفع الذي يمكنك من تقييم نفسك وتقييم ما قدمت.. نظرة إلى المستقبل، ليس عبر كرة بلورية، بل عبر البصيرة الأكثر شفافية من البلور..

أعراف، وعرفة.. لا يمكن أن يكون هذا صدفة..

* * *

كيف نربط هذا بعرفة؟

سورة الأعراف، التي قدمت لنا من يقف على مرتفع ليرى نتائج الأعمال ومصائر الناس..

وقدمت لنا أيضا تلك الآية عن الميثاق، عن شهادتنا قبل أن نشهد.. **الآية التي نعرف الآن أنها حدثت على عرفة!..**

وعرفة جبل.. مكان مرتفع مثل الذي وقف عليه أصحاب الأعراف.. لا صدفة!

* * *

ترانا نقف على عرفة، لنرى أين أصبح ميثاقنا؟ وماذا فعلنا بشهادتنا؟.. ترانا سنكون حيث نطمع أو حيث نخاف أن نكون؟..

ترانا نقف على عرفة، لنستحضر كل تاريخنا، ونقارنه بتلك الشهادة، بذلك الميثاق الذي أخذ علينا..

ترانا نقف على عرفة، لنجدد الميثاق؟ لنجدد العهد.. لنؤكد للملائكة، الذين تساءلوا يوما ما عن مقدرتنا على تحمل المسؤولية، لنؤكد لهم أننا قادرون على أدائها..

ترانا نقف لنشهد مجددا أنه ربنا، هذه المرة بكامل وعينا، بكامل إرادتنا، مع سبق الإصرار والترصد.. ترانا نقف على عرفة لنثبت جدارتنا واستحقاقنا بما منحنا الله إياه في بدء الخليقة؟

تراه يباهي بنا ملائكته هنا على عرفة، لأننا جئنا لنؤكد ما قلناه في مطلع التاريخ، عند بدء الخليقة.. تراه يذكرهم بنا بلحظة التساؤلات.. تراه يذكرهم عز وجل، بأن أبناء آدم، الذين أمرهم الله بالسجود له، قد جاءوا

شعثا غبرا، ليؤكدوا «أولست بربكم؟.. بلى»..

* * *

ترانا نقف لنفي بنذورنا؟!

«ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (الحج: ٢٩)

ترى النذر هنا هو ذلك العهد القديم، الذي نرجع هنا لكي نثبت أننا أوفياء له؟!

* * *

«لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (البقرة: ١٩٨-١٩٩)

أفيضوا من حيث أفاض الناس.. لماذا؟

لأن قريش كانت تستنكف أن تقف بعرفة كما يقف بقية العرب، فكانت تقف في مزدلفة.. وتخرج من مزدلفة..

ذلك التكبر القريشي كان لا بد للشعائر أن تنسفه من جذوره.. أفيضوا من حيث أفاض الناس، نقطة انتهى..

لكن التكبر لن يكون فقط في هذه الجزئية.. وملأ قريش يمكن له أن يعود ليظهر ويتمظهر في أشكال مختلفة.. ربما لم يعودوا يقفون في مزدلفة، لكن وقفتهم في عرفة صارت محاطة بمظاهر الأبهة والترف والتعالي.. هناك من يفتتح بوفيه يضم ما يكفي لإطعام

قبيلة من الجياع لمدة سنة، ويملؤها بما لم تذقه هذه القبيلة أو لم تسمع به أصلا من روبيان وأطعمة فاخرة مترفة، وكل ذلك من أجل بضع ساعات يفترض أن يركز فيها الإنسان على (كله) لا على بطنه..

نعم، الملأ لم يعد يمكنه أن لا يقف في عرفة..

صار يقف فيها، لكن لا يقف مع الناس..

يخرج منها معهم، لكن هل يفيض حقا؟

* * *

الإفاضة فقها هي الخروج من عرفة إلى مزدلفة.. وأفاض القوم من مكان، اندفعوا وتفرقوا..

لكن الإفاضة أيضا هي من الفعل (فاض) وتعني (كثر)..

أليس هذا ما يحدث حقا في عرفة؟

ألا تخرج من عرفة وأنت تكاد تفيض على العالم بما عرفت؟.. ألا تتدفق من أطرافك ومن أنفاسك طاقة جديدة، روح جديدة، لوليد جديد؟

تفيض الجموع من عرفة، لو عرفت هذه الجموع حقا ما الذي في عرفة، لكان هذا الفيضان هو أعظم مصدر طاقة في العالم.. أعظم مصدر طاقة للبناء، لهدم ما يجب هدمه، لإعادة بناء العالم على النحو الذي ينسجم مع شهادتنا على قمة العالم..

أو: كان يمكن أن يكون كذلك..

تعرفون كيف سارت الأمور.. كيف فرغت الشعائر

من معانيها، حتى صارت حركات رياضية نؤديها دون أي فهم.. **وصار الفيضان، مجرد غثاء، كغثاء السيل..**

* * *

ثم أتى به عرفة فقال: هذه عرفة. قال ابن عباس: أتدري لم سميت عرفة؟ قال: لا. قال: لأن جبرائيل عليه السلام قال له) أعرفت؟)

أعرفت؟

في منى، تمنى آدم.. تمنى أن يعود للجنة..

في عرفات، عرف إبراهيم الدرب إلى هناك..

بين الأمنيات، والمعرفة، ثمة قمة..علينا أن نعتليها...

* * *

مفتاح مزدلفة

ليس في مزدلفة من الأعمال ما يكاد يكون خاصا بها..

تصلها، تصلي المغرب والعشاء جمعا بأذان واحد، ثم تنام حتى الفجر.

للوهلة الأولى سيبدو ألا شيء هناك.. بضع ساعات لا أكثر في مزدلفة..

لكن ستذكر أن التنظيم، والالتزام بالتعليمات، هي جزء

أساسي من الشعائر، جزء أساسي مما يريد الحج أن يعلمك إياه..

مزدلفة هي جزء من تدريبنا على أن نلتزم بسنته عليه الصلاة والسلام، توقيت الدخول إليها، الخروج منها، المبيت فيها، **كلها جزء من (الخطة العسكرية) التي يتضمنها الحج، جزء من تعليمك الانضباط والالتزام..** ستفعل ما فعله الرسول الكريم كجزء من التزامك بالخطة، خطة المواجهة مع ذاتك، خطة التدخل السريع لإنقاذ ذلك الشخص الذي تريد إنقاذه.. الشخص الذي تريد له أن يولد..

الحج عرفة نعم، والذروة الأعلى التي في الحج قد تم المرور بها للتو، لكنك في مزدلفة ستثبت أن الأمر لم ينته، وأن التزامك بما فعله الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وبسنته الشريفة هو جزء من العهد الذي قطعته للتو على عرفة.. شهادتك التي أعدتها بكل وعيك، والتي شهدت لله فيها أنه خالقك وربك وأن الملك والحمد له، هذه الشهادة، تتضمن فورا، وتلقائيا، أن تلتزم بسنته عليه الصلاة والسلام..

هل ستقول أن مكانا محصورا يجب الدخول والخروج منه خلال بضع ساعات سيكون أمرا صعبا على الملايين التي تأتي الآن لكل سنة، وأن الأمر لم يكن كذلك في عهده عليه الصلاة والسلام؟

نعم.. وهذا امتحان آخر، **أن تدير هذا الأمر، أن تثبت أن المسلمين لم يزيدوا فقط في العدد بل نموا أيضا في قدراتهم التنظيمية.. (امتحان نعرف نتائجه الحالية للأسف!)**

مزدلفة هي امتحانك الأول..

ستكون حياتك اللاحقة كلها (مزدلفات)..

*   *   *

مزدلفة تثبت لك موقعك من الإعراب..

تثبت لك حقيقة ما فعلت..

هل أزلفك الحج مما يجب أن تكونه؟ من الشخص الذي خلقت لتكونه؟ من الخليفة في الأرض؟ أم أنك جعلته زلفى لمغفرة الذنوب فحسب، ومن ثم العودة لما كنت عليه؟

مزدلفة تجربة أولى.. (بروفة) لما سيحدث لاحقا..

*   *   *

مزدلفة هي امتحان تخوضه وأنت تقوم بدور (رماة جبل أحد)..

المعركة تكاد تكون قد انتهت.. والمهمة تكاد تكون أنجزت.. والغنائم أمامك.

هل ستخالف أمره عليه الصلاة والسلام وتتسبب في الهزيمة؟ أم أنك ستتعلم من الدرس، وتثبت؟

مرحبا بكم في مزدلفة..

بروفة لحياتك المقبلة كلها..

مفتاح رمي الجمرات

أول ما ستفعله عند وصولك منى قادما من مزدلفة، صبيحة يوم العيد، هو أن تقوم برمي الجمرات، في جمرة العقبة..

اليوم يوم عيد، لكنك ستجمع الحصى، وتذهب لرميها..

لا تزال على خطى إبراهيم.. لا تزال تتلمسه في دربك..

«إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُمِرَ بِالْمَنَاسِكِ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَسْعَى فَسَابَقَهُ فَسَبَقَهُ إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ فَعَرَضَ لَهُ شَيْطَانٌ - قَالَ يُونُسُ الشَّيْطَانُ - فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى ذَهَبَ» ( ) ..

يعتقد الشيطان أن محاولته القديمة مع آدم تنجح دوما.. وهي تنجح فعلا في الكثير من الأحيان كما نعرف من التاريخ الشخصي والتاريخ العالمي..

لكننا نستحضر اليوم، في يوم العيد، ليس أبانا الذي غرر به، بل نستحضر أبانا الذي انتصر.. في العيد نحن أولاد إبراهيم الذي لم يتمكن إبليس من غوايته، في العيد نعيد درب إبراهيم.. لا درب خروج آدم من الجنة..

في صبيحة العيد، وبعد أن خرجت أقوى وأعرف من عرفات، بعد أن جددت شهادتك هناك، تستعيد إبراهيم الذي..

«وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ» فأدى ذلك إلى..

«قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» (البقرة: ١٢٤)

يريدك إبليس أن تكون مثل

«وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» (طه: ١١٥)

ثمة خيار، ثمة مفترق طرق في كل خطوة نخطوها في حياتنا..

بعد مزدلفة، أنت أمام هذا الخيار مجددا، أن تخطئ خطأ آدم، وتضعف أمام الشيطان.. أو أن تتم كلمات إبراهيم..

أمام الجمرة ـ وأنت ترمي الحصى، يفترض أن تكون قد حسمت الأمر والقرار مع ذاتك..

ليس مجرد حصى ترميها..

بل قرار اتخذته، إعلان واضح للحرب على الشيطان، تعلنه وأنت مسؤول عن نتائجه..

* * *

ها أنت ترمي الشيطان، ترجمه بالحصى التي في يدك..

وأنت تعرف أن هذا الشيطان يجري منك، من كل ابن لآدم مجرى الدم).

تعرف إذن أنك إنما ترجم جزءا منك..

نعم، الشيطان يجري منك مجري الدم.. الشيطان جزء منك، لا يمكن للشيطان أن ينتصر عليك، أن يخدعك إلا بمداخل هي جزء منك..

لا يمكن أن يدخلك إلا من خلال ثغرات معينة.. ربما هي جزء من طبيعتك البشرية، ربما يمكن أن تكون مصدرا للقوة لو أحصنت، لكنها ستكون مداخلا للشيطان، وبالتالي لمهالكك، لو تركتها دون تحصين..

كل حكايات هزيمتنا أمام إبليس بدأت بباب مفتوح، بثغرة لم تحصن جيدا، بسد لم يحسن بناءه..

تسلل إلى آدم بثغرة **الرغبة في الترقي**.. «أن تكونا ملكين» (الأعراف: ٢٠)

أو **الرغبة في الخلود**.. «أو تكونا من الخالدين» (الأعراف: ٢٠)

أو ثغرة **الرغبة في التملك** «هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» (طه: ٢٠)

ويتسلل إلينا دوما بثغرات مماثلة..

كم تسفح قيمنا باسم الرغبة في التقدم والرقي والتطور.. كم خدعتنا شعارات كهذه وجعلتنا نسقط في مهالك وفي درك أدنى من درك..

إنه الفخ الإبليسي ذاته، بأغلفة جديدة ومتنوعة..

* * *

ترميه بالحصى الصغيرة في يديك..

ليست (حجارة كبيرة)، بل صغيرة، أكبر من حبة الحمص وأصغر من حبة البندق، ليس فقط لأن الحجم الأكبر قد يؤذي من حولك، ولكن لكي تدرك أن الأثر التراكمي – البطيء ولكن المستمر - هو ما يجدي على المدى البعيد..

الحجر الكبير لا يضر بين الحين والآخر في هذه المواجهة، بل إنه قد ينفع، **لكن الأساس هو تلك الحصى الصغيرة.. الجمرة التي لا تنطفئ.. تبقى تقيد.. تنبض بالنار والنور في أعماقها..**

الجمرة**!** أنت ترمي بالجمرة على الشيطان، الشيطان الذي يجري منك مجرى الدم، ترمي بالجمرات على الحائط أمامك، لكنك تعرف أن مواجهتك الحقيقية، أن ميدان رميك وتصويبك الحقيقي هو في ذاتك، وأنك بينما ترمي الجمرة بيدك بعيدا نحو الحائط، فإنها يجب أن تسقط فيك.. مرماك الحقيقي هو في مجرى الدم منك..

ليس ذلك يسيرا قط، كقابض على الجمر، سترمي بالجمر على بعض من ذاتك..

* * *

سترجم بالجمرات ضعفك.. سترجم كسلك.. تخاذلك..

سترجم بالجمرات (أناك) التي تمنعك من أن تكون جزءا نافعا من الـ (نحن).

سترجم غضبك فيما لا يستحق الغضب، وبرودك على ما يستحق الانفجار والثورة..

سترجم سذاجتك.. جهلك.. وتصورك أنك الأعلم دون علم.

سترجم شعورك بالنقص تجاههم، وتجاه كل ما ينتجون ولو كان السم الزعاف..

سترجم نسيانك. سترجم تناسيك. سترجم نكرانك. سترجم إنكارك. سترجم هروبك المستمر من الحقائق. سترجم دفنك لرأسك في الرمال كي لا ترى الحقيقة..

سترجم عبوديتك لشهواتك.. سترجم وجهك الآخر الذي لا يعرفه أحد سوى عالم السر والعلانية..

قائمة رجمك طويلة.. ولعلك أنت من يعرفها، أنت من يجب أن يحددها..

* * *

سبع جمرات في يدك؟

لن تهرب هنا من معنى الرقم سبعة، **الاستمرارية والدأب**، طفت سبعا وسعيت سبعا، في إشارة لطوافك وسعيك في كل حياتك، واليوم ترمي سبعا في إشارة إلى أن معركتك مع الشيطان ستبقى مستمرة.. إنها معركة دائمة.. دوام الطواف والسعي.. لا حياد في المعركة.. كما لا هروب من الطواف..

إن لم تطف بالبيت، فستجد نفسك تطوف بغيره، ربما بيت آخر مبني على قيم أخرى ومنظومات حضارية مختلفة.. حتى لو توهمت أنك لا تطوف إلا حول (حريتك الشخصية)- بل بالذات لو توهمت ذلك!

وإن لم تسع بين الصفى والمروة، **فستجد نفسك غالبا**

تسعى في سياق آخر، بين جبلين ربما يخفيان خلفهما هاوية بلا قعر..

كذلك إن لم ترم، في حياتك، هذه الحصى نحو ما يجب رميه، إن لم تواجه الشيطان عند مداخله في ذاتك.. فستجد نفسك أسيرا عنده بلا شك..

لا حياد في هذه المعركة.. **لا يمكن لك أن تعقد هدنة..**

اي اتفاق لوقف إطلاق النار، سيكون معناه، أنك خدعت وغرر بك.. كما حدث مع أبيك، يوم كان ما كان..

* * *

تحاصرك الحصى السبع ومعانيها.. تذكرك أن الحصى التي ترجم بها، هي حصى تبني بها أيضا، وأن ما يمكن أن تهدم به، هو ذاته ما يمكن أن تبني به..

تذكرك الحصى بالوجه الآخر لعملية البناء، الهدم.. لا يمكنك أن تبني حقا دون أن تهدم بعض ما يجب هدمه.. ولا يمكن أن تهدم فقط، دون أن تربط مشروع هدمك بالبناء..

* * *

ثمة واقعة صغيرة حدثت عند رمي الجمرات..

تقدم رجل ليسأل الرسول عليه الصلاة والسلام سؤالا أثناء رمي الجمرات.. فأعرض عنه الرسول إلى أن أنهى الرمي، ثم أجابه..

نعرف السؤال والجواب، فهو مما اشتهر على الألسنة..

لكننا نسهو عن السياق..

نادرا ما نتنبه إلى أن هذا الجواب، هذا الحديث الشريف، قد قيل في رمي الجمرات، وأن هذا قد يمتلك دلالات للجواب الشريف..

عَنْ أَبِى أُمَامَةَ قَالَ عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - رَجُلٌ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الأُولَى فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَىُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ فَسَكَتَ عَنْهُ فَلَمَّا رَأَى الْجَمْرَةَ الثَّانِيَةَ سَأَلَهُ فَسَكَتَ عَنْهُ فَلَمَّا رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَضَعَ رِجْلَهُ فِى الْغَرْزِ لِيَرْكَبَ قَالَ «أَيْنَ السَّائِلُ». قَالَ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ ذِى سُلْطَانٍ جَائِرٍ».)

ليس صدفة أن يكون سياق حديث «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» قد حدث عند رمي الجمرات..

وأنه عليه الصلاة والسلام لم يرد على سؤال السائل «أي الجهاد أفضل؟» إلا بعد أن أكمل الرمي..

كلمة الحق عند سلطان جائر، هي جزء من المعادل الواقعي الحياتي لشعيرة «رمي الجمرات»..

* * *

مفتاح النحر

تقديم الذبائح أمر تشترك فيه الكثير من الأديان السماوية.. بل وحتى غير السماوية..

وهو أمر يجب أن لا يشعرنا بالحرج ولو قليلا.. فنحن نؤمن أن الأصل في الفطرة هو التوحيد، أن كل انحراف

لاحق وطارئ على الفطرة قد يحمل معه جزءا مما أقرته تلك الفطرة، سيوظف حتما في اتجاه خاطئ، لكن هذا لن يجعلنا (نخجل) أو (نشكك) في أمر كان موجودا بالأصل فقط لأن الوثنيين صاروا يقلدونه.. فلنتذكر أن الوثنيين يتنفسون أيضا..

الأضاحي في الإسلام مختلفة، في الديانات الوثنية كانت الذبائح تلطخ الأوثان، وكان الكهنة ينالون اللحوم، حتى في اليهودية، كان الكهنة ينالون الحصة الأكبر من الذبائح، وكان لا بد أن تقدم في الهيكل، ومن ثم فقد توقفت تماما بسبب اختفاء الهيكل منذ القرن الميلادي الثاني..

لكن في دين بلا هياكل ولا كهنة، جعلت الأرض كلها مسجدا له وطهورا، فإن الأضحية التي تذبح لا تقيد ببناء أو مسجد، بل تذبح في منى، في أرض منى في الهواء الطلق..

ولا كهنة هناك يستأثرون بالذبائح.. ليس سوى التكافل الاجتماعي، ليس سوى اللحم يوزع على الفقراء..

هذه الشعيرة إذن تسفك دم الحيوانات، لكي تحقق (الشبع) في هذا العالم المليء فقرا وجوعا وظلما وتناقضا، العالم الذي يموت فيه البعض من أمراض السمنة أو أثناء عمليات شفط الدهون والتنحيف، وآخرون يموتون جوعا..

* * *

الشعيرة تذكرك أيضا بحقيقة أخرى مرتبطة بما سبق..

مجرد قيامك بذبح مخلوق آخر من مخلوقات الله، **تذكير لك بموقعك في هذا الكوكب.. موقع السيادة المشروطة، موقع الاستخلاف المحدد بصلاحيات لا يمكن تجاوزها..**

نعم.. أنت المخلوق السيد في هذا العالم.. أنت المخلوق الأهم، سخرت الأرض بمواردها وثرواتها، بباطن خيرها وظاهره لتكون تحت تصرفك فيما خولت فيه..

أنت المخلوق الذي سجدت له الملائكة، وكان ذلك علامة رمزية على تسخير كل المخلوقات لك، ليس بالمطلق، وليس كما تشاء، وليس دون ضوابط أو حدود، لكن كل ما في الأرض هو ضمن امتحانك، ضمن مسؤوليتك..

ضمن اختبارك..

هل سيقول لك أحدهم شيئا عن الرفق بالحيوان..

نعم، **الذبح برفق ورحمة حسب الشروط..**

لكن أي تماد في موضوع الرفق أكثر من ذلك، سيكون مساسا بوظيفتك.. بمكانك.. بمكانتك..

بالإنسان فيك..

إن تجاوزت الشروط والصلاحيات، وإن تنازلت عنها، في الحالتين سيكون هناك مساس لما خلقت لأجله..

* * *

والنحر يربطنا بذلك الموقف الإبراهيمي الذي لا ينسى، المحفور في ذاكرتنا ووعينا..

يوم (**أسلم**) هو وابنه.. يوم وصلا سوية للذروة في التسليم لأمر الله..

يوم (وتله للجبين).

ذلك الموقف الهائل، سيأتي ليحضر، ليكون شاخصا، في يوم العيد.. يوم النحر..

تعودنا أن نقبل الأولاد يوم العيد.. أن ندخل على قلوبهم الفرحة..

لكن النحر، يذكرنا بما هو أهم من ذلك، يذكرنا بما يجب أن نربي أولادنا عليه، نتخذ من أولادنا في الغالب (قضية) نعيش من أجلها، قضية تغرق في التفاصيل: مأكلهم مشربهم ملبسهم صحتهم لهوهم تعليمهم..

لكن ما هو أجدر بالاهتمام هو أن ننشئهم على **قضية**.

ننشئهم - وأنفسنا - على الأولويات التي تجعل طاعة الله مقدمة على كل شيء آخر.. لا يقول لك أحد اذهب واذبح أبناءك، فما حدث في الوحي كان امتحانا لإبراهيم وابنه، وهو مثل ودرس لنا.. درس لكي تعرف بما يجب أن تضحي به، درس لكي تعرف ما الذي يجب تقديمه على المذبح، درس لكي تدرك معنى ما تقول عندما تقول «إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين».. لأن هذه الجملة تتضمن (أولادك) أيضا.. هم أيضا، مثل صلاتك ونسكك ومثل كل محياك ومماتك، لله.. لكن الله كفاك صعوبة تجربة أن تضعهم على المذبح، كل ما يجب أن تفعله هو أن تضع كل ما يمنعهم من أن يكونوا كما أراد الله على المذبح.. كل ما يجب أن تفعله هو أن تربيهم ليكملوا الدرب، ليكونوا كما أراد لهم خالقهم أن يكونوا..

* * *

مفتاح التحليق

ثم سيأتي الموس ليحلق لك شعرك.

عندما يمر الموس على رأسك، تشعر أنه يزيح أكثر من مجرد الشعر.. تشعر أنه يقشرك طبقة تلو أخرى..

يتساقط شعرك على كتفيك.. فتتساقط معه أشياء أخرى.. **تشعر أن مشاعر قديمة لك تسقط، تشعر أن ذنوبا لك تسقط.. يمر الموس ليكشط شعرك، فتشعر أن ما يكشط حقا هو ما ران على قلبك.. تشعر أن ما يزال ليس الشعر، بل ذاك الصدأ المتراكم على قلبك، على عقلك، على روحك.. كنت تعتقد أن هذا الصدأ قد صار جزءا منك، كنت قد توهمت أنه صار جزءا من روحك،** كنت قد فقدت القدرة على التمييز بين ما هو أنت حقا، وبين ما تراكم عليك..

يمر الموس، رأسك يصبح عاريا للشمس والهواء، تستنشق الهواء على نحو أعمق، تكاد تلهث.. **تكاد تحلق عاليا.. كما لو أن شعرك كان قيودا تشدك إلى الأرض..**

لكن لا.. ليس الشعر الذي زال هو الذي كان يمنع كل هذا..

بل هو الشعور المرتبط بالشعيرة الذي يجعل من حلق الشعر بابا إلى التحليق إلى الأعلى..

نعم، ثمة شعائر لقص الشعر في العديد من الأديان، سماوية أو غير سماوية، لكنها ترتبط غالبا ببلوغ سن معينة (ثلاث سنوات عند ذكور اليهود مثلا).. أما هنا،

فأنت تؤشر لولادة جديدة بمعزل عن عمرك السابق، لقد ولدت للتو، وهذه الشعيرة تذكرك بأنك إنسان جديد، يخرج من الإحرام وقد نزع عنه حياته السابقة وذنوبه السابقة وكل ما شده إلى ذلك الإنسان الآخر الذي كانه..

* * *

أيام فقط ويعود الشعر لينمو كالزغب.. دعه ينمو في جسد إنسان جديد.

دع هذا الشعر الجديد، يكون شاهدا على شخص آخر.. شخص أفضل، أقرب إلى ذاته.. أقرب إلى ما خلق لأجله..

* * *

مفتاح طواف الوداع

تطوف وداعا..

لكن قلبك لا يحتمل حتى الفكرة..

الوداع؟!..

حقا؟! بعد أن وجدت بيتك العتيق!.. بعد أن وجدته بعد سنوات من الترحال والسكن في بيوت استأجرتها – حتى لو كانت قد سجلت باسمك!..

بعد أن وجدته بشق الأنفس، ذلك البيت الذي وضع منذ بدء التاريخ لأجلك، هل تتركه الآن؟..

قلبك، لا يعقل هذا..

رغم كل الشوق الذي لا يمكن إنكارك له لكل أحبابك في عالمك السابق، إلا أن قلبك لا يعقل أنك ستنتزع نفسك من بيتك (القديم)..

لكن هذا هو طواف الوداع..

الوداع جزء من الشعائر إذن، رفعت الأقلام وجفت الصحف..

لا خيار..

أن ترحل عن البيت العتيق، نحو بيتك الجديد، نحو العالم الذي يجب أن يعاد بناؤه على أسس جديدة..

هذا الرحيل هو جزء من الشعائر نفسها.. لم تمر بكل ما مررت به من علامات على الطريق لكي تختزن تجربتك لنفسك، لم تولد من جديد لكي تصاب بموت المهد الفجائي)..

لم تولد من جديد، لكي تشارك في عملية قتل الإنسان الوليد في داخلك، وتعيد ذلك الذي جئت أصلا إلى الحج كي تتخلص منه..

الوداع جزء من الشعائر.. جزء من أن تكتشف إن كنت قد نلت ما جئت من أجله..

لا يمكنك اكتشاف ذلك وأنت في الحرم..

لا يمكنك أن تعرف ذلك إلا عندما تلتحق بالعالم.. **لكي تجرب الإنسان الجديد الذي يفترض أن يكون قد ولد بين جنبيك..**

قلبك لا يعقل الفراق..

لكن عقلك يعقله!..

تطوف وداعا، وتهمس في نفسك، إلى اللقاء!

* * *

لن يصلح فرد العالم لوحده.

لكن العالم لن يصلح إذا تصرف كل فرد، كما لو أن الأمر لا يعنيه..

كما لو أنه سيكفيه أن يحج، وينتهي الأمر..

الحج يقيم عليك الحجة: هذا العالم، يجب أن تنقذه، لو أردت النجاة..

على الأقل أن تحاول ذلك..

* * *

وفي موروثنا، ثمة واقعة أخرى، ربطت الولادة بالحج، بطريقة ما..

.. أن ابن عمر رضي الله عنهما رأى رجلا يطوف بالبيت حاملا أمه، وهو يقول: أتريني جزيتك يا أمه؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: «أي لكع ولا طلقة واحدة»).

يحملها على ظهره، ويطوف بها، يسألها، تراني وفيتك حقك؟

يقف له ابن عمر بالمرصاد، أي لكع، ولا طلقة واحدة..

واللكع هو اللئيم صغير العقل والعلم.

إنه يعتقد أن أدائه لبعض الشعائر سيسقط عنه دينه، وحمله، ومسئوليته..

إنه يعتقد أن **الشعائر تسقط ما يجب فعله، بدلا من أن تكون تقوية لنا للمزيد من الفعل والأداء..**

لكع، لئيم في العطاء، يحسبها مثل المرابي اليهودي، يريد أن يقدم بالضبط أقل ما يمكنه، مقابل العطاء الأقصى الذي حصل عليه..

لكع، صغير في العقل والعلم، **لا ينظر إلى الشعائر إلا كحركات بدنية، يؤديها وينتهي الأمر، بدلا من أن يؤديها ليبدأ الأمر..**

لكع هذا، هل يذكركم بأحد؟

أم هل يذكركم بمن يفعل أقل من ذلك؟

ليس مع أمه فقط.. بل حتى مع نفسه..

وأيضا، من باب أولى.. مع أمه الأخرى.. أمته..

لكع المعاصر، يؤدي الشعائر ليتخلص من واجبه، حتى تجاه نفسه.. وبالتأكيد نحو أمته..

* * *

المشكلة أن لكع، يعتقد أنه قد أدى قسطه للعلي، لمجرد تمكنه من أداء شعائر الحج..

* * *

بين لكع الذي تقمصناه بأقصى المعاني..

وبين ذاك الذي حج فعاد كما ولدته أمه، بون شاسع، مسافة شاسعة..

بين الحج كما يجب أن يكون.. وكما جعلناه يكون..

* * *

في كل موقف من مواقف الحج، كان ثمة مفتاح..

لكن هذا المفتاح لا يفتح لك الحج ومعانيه ومعاني أركانه فحسب..

بل يفتح لك الآفاق الجديدة في نفسك..

مفاتيح الحج تفتح لك الإنسان الجديد في داخلك..

تفتحك عليه..تفتحه لك..

تساهم في أهم فتح يمكن أن تخوضه في حياتك..

فتح نفسك..فتح نفسك لما يجب أن تكونه..

وبعدها يمكن للعالم أن يتغير..

الفهرس

عن مبادرة قيام – القرآن لأمة قائمة

هذه المبادرة هي المظلة الرسمية الراعية لأعمال الدكتور أحمد خيري العمري.. المقروءة والمسموعة والمرئية والنشاطات الفكرية الملازمة وهي التي تمتلك حقوق نشر وتوزيع أو إعادة نشرو توزيع جميع الأعمال القديمة والصادرة حديثا وبكل اللغات وبكافة أنحاء العالم.

إصدارات الكاتب:

البوصلة القرآنية
ليلة سقوط بغداد
سلسلة ضوء في المجرة (صدر منها):
- كش ملك
- أدرينالين
- يوم، شهر، سنة
- الذين لم يولدوا بعد
- تسعة من عشرة
- غريب في المجرة

الفردوس المستعار والفردوس المستعاد
أبي اسمه ابراهيم (رواية للناشئة)
سلسلة كيمياء الصلاة (5 كتب)
ألواح ودسر
استرداد عمر من السيرة إلى المسيرة
سيرة خليفة قادم

بخصوص النشر والتوزيع الرجاء مراسلة المبادرة على quran4qyam@gmail.com

كل كتب الحج الأخرى وأشرطتها ومطوياتها وكتيباتها،

ستقول لك ماذا تفعل في الحج، وبالتفصيل.

هذا الكتاب، يقول لك: لماذا تفعل ما تفعله.

ليس لأنك معترض..

بل لأنك عندما تعرف لماذا، عندما تفهم لماذا،

سيكون أداؤك مختلفاً،

سيكون حجك جامعاً بين جوارحك وعقلك،

ستتأمل في معانٍ لم تفطن لها من قبل،

وسيكون تأملك هذا مدخلاً لخشوع من نوع آخر،

خشوع الفهم الواعي المدرك.

كثيرون يذهبون إلى الحج، لكن لا يدخلونه،

يؤدون مناسكه كما يجب، ولكن في غمرة انشغالهم بالأداء،

لا يملكون أن يفهموه، بينهم وبين فهم كل شعيرة ثمة باب مغلق..

هذا الكتاب، يمنحك مفاتيح هذه الأبواب المغلقة..

يساعدك على أن تفهم حجك، لكي يكون أفضل.





القصواء QASSWA

المركز الطبي الدولي
International Medical Center